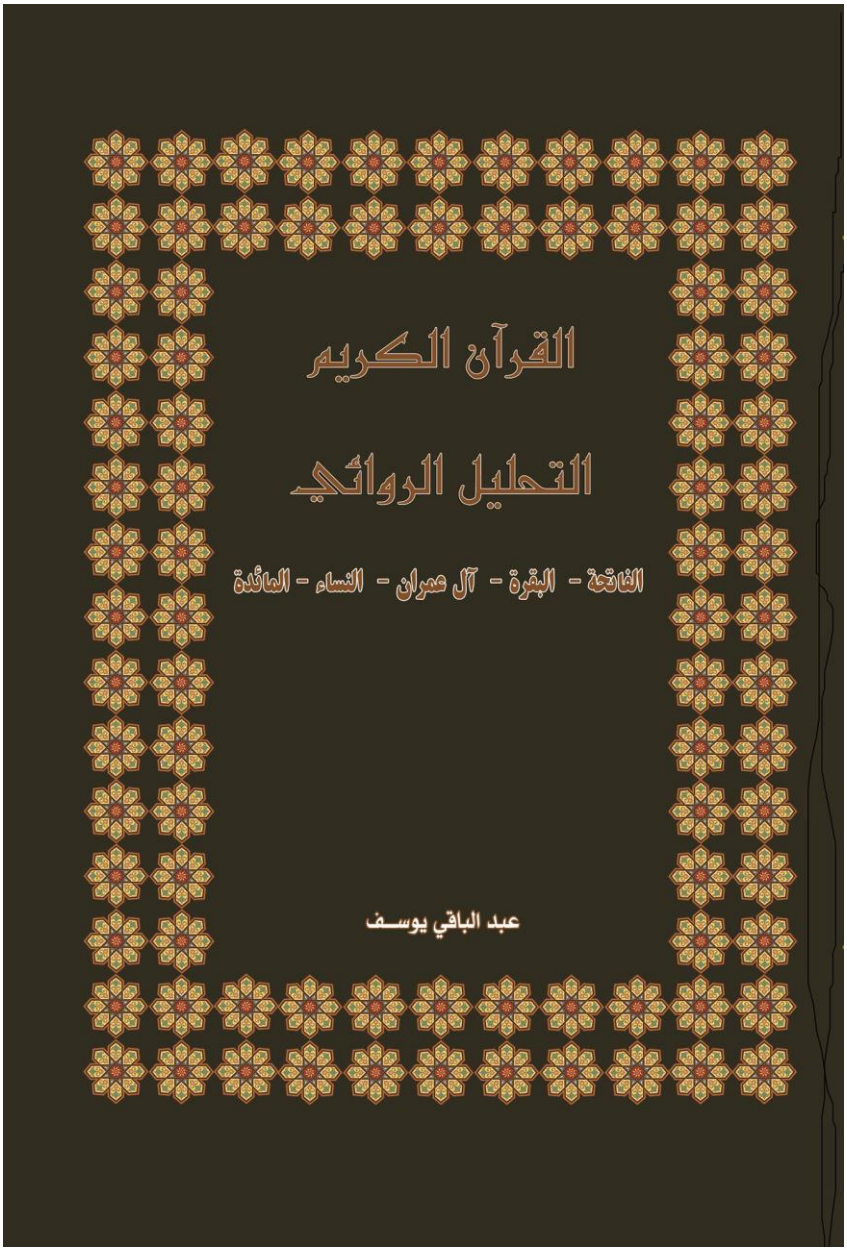
التحليل الروائـــي لســـورة
آل عمـران

عبد الباقي يوســـف

هذا الكتاب هو جزء من المجلد الأول من تفسير التحليل الروائي للقرآن الكريم
الذي ضم سور: (الفاتحة– البقرة– آل عمران– النساء– المائدة)
لمؤلفـه: عبد الباقـــي يوسـف
وقد صدرت الطبعة الأولى منه في مدينة أربيل – العراق – سنة ٢٠١٦



مقدمـــة

اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن هذه السورة هي زهراء القرآن إلى جانب سـورة البقـرة، فقـد صـح عنـه قوله: "اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهمـا تأتيـان يـوم القيامـة، كأنهمـا غمامتـان، أو كأنهمـا غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما"[1] .

ومما يقوله عليه الصلاة والسلام في هذه السورة : "مـن قـرأ سـورة آل عمـران يـوم الجمعـة صـلّى الله عليـه وملائكته حتى تجبّ الشمس"

"من قرأ سورة آل عمران أعطي بكلّ آية منها أماناً على جسر جهنم"

[1] رواه مسلم

"من قرأ هذه السورة أعطاه الله بكلّ حرف أماناً من حَرّ جهنّم. وإن كُتبـت بزَعفَـران وعُلِّقَـتْ علـى امـرأة لم تَحْمِلْ، حَمَلَتْ بإذن الله تعالى، وإن عُلّقت على نَخْل أو شجَر يَرمي ثمرَه أو ورَقه، أمسَك بإذن الله تعالى" .

سوف نلج بشيء من التدرّج والتحليل إلى روائية هذه الأجواء المشوّقة لهـذه العائلـة لنتعـرّف علـى الـدروس والحكم التي يمكننا أن نستنتجها من خلال مجريات الأحداث التي تكاد تركّز على جوهر الإيمـان، ومـا يمكـن أن يمتاز به الإنسان المؤمن عن غيره، وهي تبيّن مزايا الإيمان، إلى جانب ما يمتاز به الإنسان الكافر، وهي تبـيّن مزايـا الكفر، ثم تُظهر صميم العلاقة بين المؤمن والكافر.

مع آيات هذه السورة، نرى تغلغل تفاصيل الحياة اليومية التي يعيشها الناس لحظة بلحظة، ونرى كيـف أن الله متتبع لكل صغيرة وكبيرة، نرى عناية الله عز وجل بالإنسان الذي يعيش في الأرض.

إن الله جل ثناؤه هنا يتحدّث لرسوله حديثاً عاماً يمتاز بالعمومية، إلى جانب حديث خـاص يمتـاز بالخصوصـية، وآية إثر آية نتشوّق لمعرفة المزيد، ونحن نرى كيف أن هذا الحديث الذي يقوله الله يُغني اللغة العربية، ويفجر فيها آفاق المعاني الجديدة، حيث لم تعد الكلمة تقتصر على المعنى المألوف لها، بل يضـفي الحـديث الإلهـي إلى القـرآن معان جديدة مع مرور السنوات، وهذا لايعني أن المعاني السابقة التي اجتهد فيها المفسرون تُلغى، بل تبقى مضافاً إليها هذه المكتشفات والمشتقات اللغوية الحديثة، وبهذا ومـا يمتـاز بـه الخطـاب الإلهـي القرآنـي، يبقـى القـرآن متجدداً، ويبقى القارئ يرتقي في درجات تلقي معانيه، وقد بيّنتُ ذلك بشيء من التفصيل في كتـابي:" الارتقـاء في درجات تلقي معاني القرآن"[٢] لذلك أرى أن الناس يحتاجون إلى تفسير جديد للقرآن الكريم على رأس كـل قرن، وإن كان القرن محمّلاً بالكثير من المكتشفات، والمنجزات البشرية، وكذلك بالأحداث المتفاقمة، فإن النـاس يحتاجون إلى تفسيرين، أو أكثر للقرآن الكريم، لأن السـنوات، والقـرون، والأحـداث، والمكتشـفات تحتـاج إلى مرجعيتها القرآنية، كي يتجنّب الإنسان تحويل نعمة المكتشفات إلى نقمة، هذه المرجعية التي تجعلنـا منضـبطين في استخدامها، وبالتالي منتفعين بها، ومقدّمين من خلالها صور وآيـات القـرآن المشـرقة إلى العـالم، نقـدم إلى العـالم المسلمين بكل ما يتمتعون به من روح الإنسانية، والتسامح، والمحبة التي أرساها القرآن الكريم فيهم.

إننا مع هذه السورة نكون مع جوهر العلاقات الإنسانية الإنسانية، سواء في السلم، أو في الحرب، يضعنا هـذا الحديث الذي يرويه الله تعالى لرسوله إزاء نظام القيم الإنسانية، وقد نزل صدر هذه السورة بالأصـل مـن خـلال لقاء بين رأس الإيمان رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسـلم، وبـين رؤوس الكفـر والشـرك في وفـد نجران الذي قدم إليه، واستضافه في مسجده، هذا اللقاء الذي يرسي دعائم التحاور بين الإنسان والإنسان مهما بلغت الخلافات بينهما من حدّة وتصعيد، وقد تألف الوفد كما يُروى من ستين راكبا وفيهم أربعـة عشـر رجـلا من أشرافهم، وفي الأربعة عشر، ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصـاحب مشـورتهم الـذي لا

[٢] منشورات الاتحاد الاسلامي الكردستاني، أربيل، كردستان، ٢٠١٤

يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم" فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جُبَب وأرْدية فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ما رأينا وفدا مثلهم جمالا وجلالة. وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المشرق. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوهم". ثم أقاموا بها أياما يناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى ويزعمون أنه ابن الله ، ورسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون،

فكلم رسول الله السيد والعاقب:أسلما.

فقالا : قد أسلمنا قبلك.

قال : كذبتما منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير.

قالا : إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟!

فقال لهما النبي : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ؟

قالوا : بلى قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا : بلى قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا : لا.

قال : فإن ربنا صَوَّرَ عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث.

قالوا : بلى.

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم؟! فسكتوا، فأنزل الله عز وجل فيهم سورة "آل عمران "إلى بضعة وثمانين آية منها.

ومن حيثيات حوارهما أيضاً:

أن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً، فقال عليه الصلاة والسلام: معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني.

ومما يُروى في هذا الحدث كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أورد الدلائل على نصارى نجران، ثم إنهم أصروا على جهلهم، فقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم». فقالوا: يا أبا القاسم، بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فلما رجعوا قالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر

صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي رضي الله عنه خلفها، وهو يقول: إذا دعوت فأمنوا، فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، ثم قالوا: يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك. فقال صلوات الله عليه: «فإذا أبيتم الباهلة فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين،وعليكم ما على المسلمين»، فأبوا، فقال: «فإني أناجزكم القتال»، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة: ألفا في صفر، وألفا في رجب، وثلاثين درعاً عادية من حديد، فصالحهم على ذلك، وقال: "والذي نفسي بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستئصل الله نجران وأهله، حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ".

ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي رضي الله عنه، ثم قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا**﴾ الأحزاب٣٣ .

وكذلك مما يُروى عمّا دار في هذا اللقاء أنهم قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى.

من هنا، فإن سورة آل عمران هي سورة الأدلة الدامغة، وسورة الإجابات البيّنة عن كل سؤال يمكن أن يختلج المسلم وغير المسلم، فهي تؤدي إلى الإيمان بالنسبة لغير المؤمنين، وكذلك ترسخ الإيمان بشكل أكثر ثباتاً بالنسبة للمؤمنين وبالتالي تجعل قارئها أكثر معرفة بالله، وأكثر قرباً منه، ثم أكثر استيعاباً للعلاقات الإنسانية الإنسانية، إنها ترسل إلى قارئها إشارات النضج الكبرى ليمتلئ بالحكمة، ويسري فيه مفعول المشاعر الإنسانية.

إن الله يوجه رسوله وهو يحمل رسالة الله إلى العالم، وما يمكنه أن يواجه من مختلف شرائح الناس حتى يتمكن من إقناعهم بها، فالحديث هنا مركّز بين الله عز وجل، وبين رسوله صلى الله عليه وسلم كما لو أنهما في خلوة، فنرى كيف أن الله يقدّم له الأدلة، ويروي له تاريخ وأسرار الإنسان والكون، وكيف أن وعي النبي ينفتح، ويتشكّل نضجه مع تلقيه تعاليم الله آية إثر آية وفق بلاغة لغوية بالغة التشويق، ومكتنزة بغنى المعاني والدلالات.

الباب الأول

معرفـة اللـــه

﴿١﴾

﴿الم﴾

تبدأ هذه السورة الثالثة من المصحف الكريم في الترتيب القرآني العثماني، والتي نزلت كاملة في المدينة المنـوّرة بعد سورة الأنفال بما بدأت به سورة البقرة:﴿الـم﴾وهي من السور الطوال كما الأمر بالنسبة لزهـراء المصـحف الثانية "البقرة" وهي كلمة تدعو للتوقف عندها كونها تشكّل آية كاملة من هذه السورة، إنها فاتحة الـدخول إلى عالم هذه السورة، وهي بمثابة التهيئة للولوج إلى رحاب هذا الحديث الطويل الذي يتوجه به الله تبارك وتعـالى إلى خاتم أنبيائه ورسله، وفق خطاب تكاملي يغتني، ويتداخل، ويتماسك بعضه ببعض، ليتعاضد المعنـى مـع المبنـى ، فتتكامل رواية سورة آل عمران مع الآية الخاتمة.

من خلال هذه الآيات التي بلغت ٢٠٠ آية، نتعرّف على الله أكثر ، فهو يحادث رسـوله بأساسـيات مـا تقـوم عليه عمارة الحياة، وعمارة الإنسان، ونتعرف على شخصية الـنبي أيضـاً الـذي يصـغي إلى هـذا الحـديث الإلهـي الطويل المركّز عليه، ثم نتعرف على طبيعة الإنسان من خلال شرح الله عنه.

لننظر كيف أن الله يعرّف ذاته تبارك وتعالى على رسوله بشكل متدرّج، يقول له أول ما يقول:

﴿اللَّـهُ﴾يا محمّد، بِدءُ الحديث – بعد ﴿ الم﴾ – بلفظ الجلالة الذي ﴿لَا ﴾نفـي قـاطع ﴿إِلَـهَ﴾في السـموات والأرض وما بينهما﴿إِلَّا ﴾تأكيد النفي بمستثنى ﴿هُوَ﴾العائد إلى الله، ولذلك بدأت الآية بلفظ الجلالة دون أحـد أسمائه الحسنى، لأن﴿الله﴾ هو مصدر هذه الأسماء الحسنى التي تدل على قدراته، ولايجوز مع ذلك الاستناد علـى

اسم من أسمائه الحسنى، لأن كل اسم يشير إلى صفة من صفاته ومنها تتفرّع صفات أخرى، وبالتالي فإن جميع هذه الأسماء تقدّم صفات الله، وما دمت قلت:﴿الله﴾فهذا يعني بأنه الأصل الذي انبثقتْ منه أسماؤه الحسنى. بعد أن يُخبره بوحدانيته ، يصف جل ثناؤه ذاته باسمين حسنيين وردا في موضعهما، ولاينوب عنهما اسم آخر، أولهما : اعلم يا محمد أنا الله الذي لا إله إلاّي:﴿الْحَيُّ﴾ وهذا إثبات الأبدية المطلقة، فاعلم يامحمد بأنني حي فـ﴿الحي﴾ هو الباقي الذي لايخضع للموت بأي شكل من الأشكال، بل أن الموت بكل أشكاله يخضع له، لأن لاشيء قادر عليه، وهو قادر على كل شيء، إنه صانع الحياة، وصانع الموت، وهو دون غيره يملك أن يحيي، ويملك أن يميت، لايضعف لشيء، وكل شيء يضعف له، ولايخضع لشيء البتة، وكل شيء يخضع له سواء طوعاً، أو كرهاً، ذلك أنه﴿الحي﴾ وإلى جانب ذلك: ﴿الْقَيُّومُ﴾٢ وهذا إعلام من الله تعالى لرسوله بأنه قائم على شؤون خلقه، لأن الحي ليس بالضرورة أن يكون قيوماً، فيمكن أن يكون حياً، لكن يقوم غيره بإدارة شؤون الخَلق، فهذا بيان من الله عز وجل بأنه﴿هو﴾بذاته الإلهية قائم على إدارة شؤون خلقه. إنّه يتفرّد بالمقدرة المطلقة على كل شيء، وهو دون غيره يمتلك أن يقيم القيامة على الدنيا.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بأن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾ البقرة:١٦٣، وفاتحة سورة آل عمران: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾[٣]

[٣]رواه أصحاب السنن، إلاّ النسائي

الباب الثانـــــي
رســـالة القرآن

في الآية الثانية، يقول له: ﴿نزّل﴾ أي أتاك بتدرّج على مكث، وقد مرّ القرآن الكريم بمـرحلتين قبـل أن يبلـغ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرحلة وضعه في اللوح المحفوظ، بدليل قوله:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ البروج ١٢،١٣ ثم مرحلة وضـعه في السـماء الـدنيا، كمـا في قولـه تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ الدخان٣ وقوله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾القدر١ وتنزيله – على مكث – على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغرقاً ٢٣ سنة متواصلة من عمر النبي بين نزول أول آيـة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾العلق١ ونزول آخر آية ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ البقرة٢٨١ .

﴿عَلَيْكَ﴾عليك، وليس لك، فعليك أن تبلغه للناس، كونه للناس من خلالك، لكـن عليـك أن تـؤمن بـه أولاً كمـا آمنـت بوحـدانيتي ، لأنـك عنـدما تـؤمن بـه، تقـوم بإبلاغـه للنـاس بقـوة إيمانـك بـه: ﴿الْكِتَابَ﴾القرآن﴿بِالْحَقِّ﴾كل ما يحتويه هذا الكتاب إنما هو حق، ولاموضع للباطـل فيـه﴿مُصَـدِّقًا﴾فيـه خـبر الصدق ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾عمّا يختلف الناس فيه بالنسبة لِما قبله، فقد أنزله الله عليك تبياناً للحق. من جهة أخرى، فإن قارئ القرآن وهو يقرأ حديث الله هذا الموجه إلى رسوله، يصبح أكثر طمأنينة، وأكثر ثقة بما يحتويه كتاب الله من الحق، وهذا ما يحض القارئ كي يستخرج الحق من كتاب الحق تبارك وتعالى، فيكون هذا الكتاب هو مصـدر الحق، ويكون مصدر شريعة الناس، وهو يقرأ من عموم القرآن: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلَـا مِـنْ خَلْفِـهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾فصلت٤٢ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَـيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾البقرة٩٧ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِّمَـا بَـيْنَ يَدَيْـهِ مِـنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ المائدة ٤٨ ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَـيْنَ يَدَيْـهِ﴾ الأنعام ﴾٩٢ ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ

رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس ٣٧ ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾فاطر ٣١

﴿وَأَنزَلَ﴾جملة واحدة، في وقت واحد، وليس على مكث:﴿التَّوْرَاةَ ﴾﴿و﴾ أنزل كذلك جملة واحدةفي وقت واحد:﴿الْإِنجِيلَ﴾٣

﴿مِن قَبْلُ﴾نزول القرآن الذي هو تصديق لهما وهذه الرسالات هي:﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾يهتدي بها الناس إلى الصواب، ثم لننظر إلى القول التالي في قوله تعالى:﴿وأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، يمكن أن نفهم هنا بأن الفرقان جاء تكراراً للقرآن، لأن هذا القرآن يحمل تفريقاً بين الحق الذي أتى به الله، والباطل الذي ادّعى به أهل الكتاب، كما رأينا في بعض أقوال وفد نجران من خلال تحاورهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يمكننا أن نقرأ:﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يدَيه﴾حاملاً الصدق بالحق، ومفرقاً بين هذا الحق، وبين ذاك الباطل، ونظراً لأن القرآن فيه هذا التفريق بين الحق والباطل، فقد وصفه الله بـ ﴿الفرقان﴾فتم ذكره دون اسمه بوصفين، الأول:﴿الكتاب﴾الذي يجمع بين القولين المتناقضين بين صفحاته، فيذكر الحق، ويذكر نقيضه، ثم يفرّق بينهما بما على صفحاته من تصديق الله لما بين يديه في هذا﴿ الفرقان﴾فذُكر بهذا الوصيف. وفي دعوة للعودة إلى الحق الذي فرّق ﴿الفرقان﴾ بينه وبين الباطل، تستأنف الآية:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾وقد جاءتهم البيّنات من الله تعالى، بيد أنهم لبثوا على باطلهم، جزاء ذلك أن:﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد﴾جزاء لهذا النكران، لأن هذا النكران تترتب عليه ممارسات تقعد على قاعدة إنكار الحق هذا، والتشبث بالباطل ذاك، فالذي ينكر الحق، لايكتفي بذلك، بل يمارس ما هو نقيض الحق، فالإنكار لايكون في فكرة الإنكار، بل في ممارسة هذه الفكرة، وأيضاً لايكتفي بذلك ويعتزل الناس في بقعة مهجورة من الأرض، بل يمارس ذلك من خلال نفسه، ويسعى إلى نشر الباطل في الناس، حتى تتسع دائرة الباطل، ويتخذ من ذلك منهاجاً لعموم مقومات الحياة، ويسعى إلى إفساد الناس بوباء الباطل، فأن يكون الحق في الصدق، يسعى إلى اللاحق في الرياء، وأن يكون الحق في الحلال، يسعى إلى اللاحق في الحرام، وأن يكون الحق في العدل، يسعى إلى اللاحق في الظلم، وأن يكون الحق في الخير، يسعى إلى اللاحق في الشر، والإنسان ليس بوسعه أن يجمع بين النقيضين في ذلك لأنه لايحمل قلبين، ولايحمل عقلين. بالمقابل يكون هذا بالنسبة للمؤمن أيضاً، فهو لايكتفي بفكرة الإيمان بالحق، بل تتحوّل الفكرة بالنسبة إليه إلى فعل وممارسة ومنهج ينتهجه في وقائع حياته اليومية، فالقول يبقى قولاً إن لم يصدقه العمل، والخيال يبقى في دائرة الخيال، إن لم يفقس من الرأس ويصبح حقيقة ملموسة متفاعلة على أرض الواقع: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾٤ إن الله بعزّته وجلاله ينتقم لعباده المؤمنين مما يلحقه بهم جنود الباطل يوم تحصل عنده الحصائل.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾كل شيء يحدث تحت سمع وبصر الله الذي: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾٥ ذلك أن الله – بالعودة إلى الآية الثانية – ﴿حي قيوم﴾، وهنا نلمس مدى ترابط هذه الآيات وتداخلها مع بعضها البعض ضمن مسار نسيج تكاملي، فهو عز وجل قائم على مجريات الأمور، صغيرها وكبيرها، سرها،

وعلانيتها، فلو غفا لحظة واحدة، لفاته شيء في تلك اللحظة، بيد أنه يبقى قائماً على شؤون عياله الـذين خلقهـم ويعولهم ويعينهم، ويسمعهم، ويبصـرهم، فلاكلمـة تُقـال دون أن يسـمعها، لاهمسـة تُهمـس دون أن يُـدركها، لانظرة تُنظر دون أن يبصرها، لافكرة تخطر على بال، دون أن يعلمها، فلا شيء يمتلك مقوّم أن يخفى عليه، وكل شيء يخضع للاستجلاء له سبحانه.

مع هذه الآيات يتعرّف النبي صلى الله عليه وسلم على الله في مستهل الحـديث، ثـم ينتقـل الحـديث إلى محـور آخر، وهو: كيفية خَلق الإنسان.

الباب الثالث

فِصال الإنسان

في الباب الأول، كنا مع تعريف الله، ثم في الباب الثاني، كنا مع تعريف للقـرآن، والآن نكـون مـع الإنسـان الذي أنزل الله له هذا القرآن، حتى يعي جوهر العلاقة التي بينه وبين الله مستعيناً بالقرآن فلننظر كيف يشرح الله تعالى خَلق الإنسان وفصاله لرسوله:

﴿هُوَ﴾الله:﴿ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾يفصّلكم، ويشكّل تكوينكم ﴿هُوَ﴾إشارة بأنه هو مصدر الخلق جميعاً: فـ: ﴿فِي الْأَرْحَامِ﴾التي هي موضع تصويري لكم، رحم المرأة، ومن هذا الموضع تبدأ رحلة رحمة الأم بوليدها، إنها تربّيه في رحمها، وهو يدغدغ رحمها، وكلما تنظر إليه نظرة، تذكر بأنه نبت في رحمها، وهذا يزيدها رحمة وشـفقة بـه مهمـا بلغ من الخشونة فيما بعد، ولذلك فإنها تكون أكثر رحمة به من أبيه الـذي يقـذف ذلـك قـذفاً، فتسـتقبله المـرأة ليتلاقح العنصران في الرحم بما يشاء الله من تصوير. ولذلك فإن الجمـاع الـذي أحلّـه الله، مـن عوامـل ترسـيخ العشرة والمودة بين الرجل والمرأة، يبدأ الرجل في تقبيل امرأته، وتبدأ المرأة في تقبيـل رجلـها، ولعلـهما لايفعـلان ذلك في أوقات أخرى بكل تلك الحميمية، ولعل الجماع يُعـدّ مـن أعظـم عوامـل الصـلح بـين المـرأة وزوجهـا، فيتسبب بصلحهما إذا نشب بينهما خلاف، بل أن الرجل الذي يريد أن يُعاقب زوجته علـى خطيئـة بحقـه، فإنـه يهجر فراشها، فتشعر الزوجة بأنها منبوذة من زوجها، فتتودد إليه، وتلمس منـه العـذر حتـى تعيـده إلى فراشـها ثانية.

والرحم، من مشتقات الرحمة، والله رحمن رحيم، يقـول في الحـديث القدسـي :" أنـا الـرحمن، خلقـتُ الـرحم، وشققتُ لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته"[٤]

[٤] أخرجه الترمذي، وصححه، عن عبد الرحمن بن عوف .

إن تكوين الإنسان في الرحم، يجعله مائلاً إلى التراحم، وكذلك إلى صلة الرحم، وصلة الرحم تعني أن تتواصل مع مَن جمع بينكم الرحم الواحد، والذي تتفرّع منه فروع، وهم ﴿ الأقارب﴾ فيحضك الإسلام أن تكون على صلة بأقربائك.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضاريفه من مني الرجل وشحمه ولحمه من مني المرأة".

ومما ورد من حديث ثوبان في صحيح مسلم: (أن اليهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: "ينفعك إن حدثتك"؟. قال: أسمع بأذني، قال: جئتك أسألك عن الولد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله" .

وثمة أحاديث عديدة تبيّن كيفية تأسيس الإنسان في الرحم، وكذلك تبيّن المسار الذي سوف ينتهجه هذا الجنين في حياته، مما يبيّن علم الله بالغيب.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك "أو قال:" يبعث إليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد " قال: " وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها "[٥]

[٥] يروي البغوي هذا الحديث في تفسيره : أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن محمد الأنصاري، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا أبو خيثمة زهير بن معاوية، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق.

ويقول: « يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتب ذلك فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص »[٦]

تبيّن هذه الأحاديث بأن تكوين الإنسان الأولي يكون في رحم المرأة، والإنسان يأخذ من أمه أكثر مما يأخذ من أبيه، وتبذل أمه جهداً به أكثر مما يبذل أبوه، ولذلك لايكون للرجل أن يحرم الأبناء من أمهم، أو يحرم الأم من أبنائها وهو يقرر الانفصال عنها، أو طلاقها، وهذه المسألة عليها أن توقفه كثيراً قبل أن يتخذ قراراً مصيرياً كهذا، وألاّ يرجّح كف أنانيته، أو مصلحته الشخصية، أو راحة باله على أساس هذا الحرمان الذي هو ظلم كبير بالأولاد، وبالأم أيضاً، إلاّ في حالات استثنائية، وهي أن الأم يمكن لها أن تفسد الأبناء، وهذا ما لايحدث إلا في حالات شديدة الاستثنائية، لكن على الأغلب فإن الأب يقرر هذا الحرمان كي يحقق لنفسه راحة من المرأة التي اكتشف بأنه غير سعيد معها بعد أن أنجب منها، أو أنه يريد أن يتزوّج بأخرى، ولذلك ترى بأن الطلاق هو ليس بغيضاً فحسب عند الله، بل هو أبغض حلاله عنده، وكذلك فهو أبغض حلال الله عند الناس بسبب ماتترتب على هذا الطلاق من سلبيات بحق الأبناء، وعواقب التفكك الأسري.

إذا نظرنا إلى عملية ضرب الأبناء، نرى بأن الابن لايشعر بأن أمه ضربته وهي تضربه بالفعل لأن التي تضربه، إنما هي التي نبت في رحمها، وهي تضربه برحمة ما نبت في رحمها، بيد أن الابن يشعر بأنه ضّرب بالفعل عندما يضربه أبوه، وحتى في المدرسة، فإن الطفل يفضّل عقاب المعلمة على عقاب المعلم. من هنا، فإن المرأة سواء في البيت، أو في المجتمع، تُشكل القوة الناعمة التي لابدّ منها، حتى تتوازن القوتان، ولا ترجح كفة إحداها على الأخرى في تربية الأولاد في البيت، أو في عموم المجتمع، فإذا رجحت القوة الخشنة، كانت الإنتهاكات المفزعة، وإذا رجحت القوة الناعمة، كان الاسترخاء، فلذلك لابد من توازي القوتين.

من هنا، فإن الانتكاسات الأولية تتشكّل في بنية الطفل على قدر ما يتلقى الضرب، أو الإهانة، أو التوبيخ، من أبيه، وليس من أمه، وهو من شأنه أن ينمّي لدى الطفل شعور النقص، أو عقدة الدونية.

وإذا كان ضرب الأب للابن يأتي بنتائج سلبية في مراحل تربيته، فإن ضربه للابنة يكون أكثر سلبية، ذلك أنها تمتلك رحماً خرج من رحم، وهذا ما يجعلها أكثر رقة وشفافية من أخيها، لأنها تّعدّ لتكون أمّاً، في حين يُعدّ أخوها ليكون أباً، وهي عندما تكبر تبقى محافظة على مساحة الرحمة في قلبها، كي ترحم به جنينها، وهو في رحمها، ثم كي ترحمه به وهو يكبر يوماً بيوم على صدرها، في حين أن الابن الذي يغدو رجلاً يملك أن ينزع الرحمة من قلبه، وأن يقسو، بل حتى يمارس القتل بأقسى ألوانه، لكن المرأة وهي تشاجر امرأة، قد يبلغ بها الأمر أن تشدّ شعرها،

---

[٦] كذلك: أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني، أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي، أنا أبو أحمد بن عيسى الجلودي، أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنا مسلم بن الحجاج، أنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم.

أو تعضها، وينتهي الأمر عند هذا الحدّ، لأن ذلك جل ما يسمح به رحم المرأة لها، وجل ما تسمح به قوتها الناعمة، لكن الرجل عندما ينقض على رجل، قد يفتك به، ويبلغ به مرحلة القتل، لهذا نرى بأن أول جريمة في التاريخ الإنساني لم ترتكبها المرأة، بل ارتكبها الرجل بحق الرجل، وإذا صدف وأخطأت الابنة خطأً فادحاً، فإنها تُخبر أمها، أو أختها، أو حتى خالتها، أو عمتها، وهي تأمن رحمها، ولاتخبر الأب، أو الأخ، أو أي رجل في العائلة، لأنها لاتأمن رعونته، وردّ فعله، وحتى في جرائم الشرف، فإن الرجل يقوم بها، حتى لو كان صغيراً، فيعتدي على حياة أخته التي نبتت معه في ذات الرحم، ولاتقدم عليها المرأة مهما كان عمرها، رغم أن المرأة هي الأكثر ضرراً نتيجة خطيئة الابنة، والرجل هو الأقل ضرراً نتيجة ذلك، فأول ما يُصيب الأذى، أمها، ثم أخواتها، ثم من هنّ على صلات رحم بها من جهة الأم، حيث قد يطال الأذى مستقبلهن ويعيقهن في الزواج، لكن ذلك لايطال مستقبل الرجل، ولا إعاقته في الزواج مهما كان مقرّباً منها، ولذلك فإن الجرائم الكبرى والصغرى، على الأغلب يرتكبها الرجال، وما يلحقه الرجال من أهوال وكوارث بالإنسان والطبيعة، لهو أكثر مما تفعل النساء، والرجال عادة هم الذين يقررون الحروب الكبرى، في حين أن النساء يبكين فلذة أكبادهن التي تودي تلك الحروب بها.

ثم عقب ذلك قال الله تعالى:

﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾معنى ذلك أن له المشيئة في خلق هذا الإنسان، سواء أجعله أبيضاً، أو أسوداً، قصيراً، أم طويلاً، ذكراً، أم أنثى. ثمة حديث نبوي بهذا الصدد يقول: "إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يومًا، ثم تكون عَلقةً أربعين يومًا، ثم تكون مُضْغة أربعين يومًا، فإذا بلغ أن يُخلق، بعث الله ملكًا يصوِّرها. فيأتي الملك بتراب بين إصبعيه، فيخلطه في المضْغة، ثم يعجنه بها، ثم يصوّرها كما يؤمر، فيقول: أذكر أو أنثى؟ أشقي أو سعيد، وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله، ويكتب الملك. فإذا مات ذلك الجسدُ، دُفن حيث أخذ ذلك التراب"[٧]

﴿لَا﴾نفي مطلق ﴿إِلَـهَ﴾رب ﴿إِلَّا﴾دون ﴿هُوَ﴾الله الواحد الأحد الذي لاشريك له، المتفرّد بأنه إله الخلق جميعاً، وقد ورد في هذا المقام اسم الله الحسن﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي يعزّ مَن يشاء، ويُذل مَن يشاء وهو على كل شيء قدير، وهذا تذكير للناس بأنه قادر أن يعزّ من يشاء، وقادر أن يذل مَن يشاء، وقد قال قبل ذلك في ذات الآية: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ثم جاء اسم الله تعالى الحسن﴿الْحَكِيمُ﴾٧ وفق حكمة إلهية خالصة في الخلق لايعلمها إلاّ الله، وهي آيات لأولي الألباب ليتفكّروا بها، ويأخذوا منها العبر، كونها تبيّن للناس بأن مشيئته جلّ وعلا لاتأتي عبثاً، بل هي لحكمة إلهية خالصة تسري في خَلقه، وهم وفق هذه الحكمة يخرجون من ظلمة الرحم وسكونه، إلى ضوء الحياة وضوضائها، والسعي في مناكب الأرض.

[٧]أورد الطبري هذا الحديث في تفسيره: "حدثنا به موسى بن هارون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط، عن السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

يبيّن ذلك بأن كل مخلوق إنما هو حكمة من حِكم الله تعالى، ولا شيء لالزوم له في الحياة، فإن مـات جـنين في رحم أمه، فهي حكمة مقدّرة من الله تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانهـا وأشخاصـها، وإن عمّـر هـذا الرجل ماشاء الله، فهي حكمة مقدّرة من الله تحمل رسالة لأولي الألباب في زمانها ومكانها وأشخاصها.

الباب الرابع
مُحكم القرآن ومُتشابهه

﴿هُوَ﴾الله ﴿الَّذِي﴾بذاته الإلهية قد﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾تنزيلاً تنزيلاً، آية فآية﴿مِنْـهُ﴾مـن القـرآن﴿آيَـاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ثابتات أحكامهن جلية فيهن، ولاتقبلن التشـبيه، أواخـتلاف التفاسـير، و:﴿هُـنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ﴾هـذه الآيات المحكمات هنّ أصل الكتاب ومصدره، ولايصح تحريك هذا المحكم تحت أي ذريعـة، كـون الأحكـام فيهـا بيّنة وقاطعة لا استثناء فيها، ثم: ﴿وَأُخَرُ﴾ممّا يتضمن هذا الكتاب﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾المتشابه، هو نقيض المحكـم الـذي يحتمل تعدّد الأحكام، واستخراج الاستثناء الذي يتوافق مع شرع الله وفق تبدّل الزمان، أو المكان، أو الحـالات التي يكون فيها الناس، فهذا الحكم في هذه الآية المتشابهة يمكن العمل به في حالة ما، ويجوز اللاعمل بـه في حالـة أخرى حتى بالنسبة لذات الشخص، إنها أحكام متحرّكة بحسب الموقف الذي يكون فيه الإنسان، فهي تبيح لـك المنهي عنه في موقف، ولاتبيحه لك في موقف آخر تكون فيه، وفي ذلك يُقال:" الضرورات تـبحن المحظـورات "، وارتكاب هذه المحظورات لا يُرتب عليك إثماً في ذاك الموقف الذي اضطررت فيـه إلى المحظـور. ومـما يبـيّن الله في ذلك :﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾البقرة١٧٣

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْـهِ﴾الأنعـام ١١٩ وبذلك، فإن القرآن يغتني بالمحكم، ويغتني بالمتشابه، وهذا ما يضفي إليـه طـابع التجـدّد، فيتجـدد القـرآن بمحكمه في كل زمان ومكان، ويتجدّد بمتشابهه في كل مكان وأوان.

بمقابل ذلك ورد في الآية الأولى من سورة سورة ﴿هود﴾ بأن القرآن كله محكم : ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُـهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾هود١، كما ورد في سورة الزمر بأن القرآن كلـه متشـابه، كمـا في قولـه عـز وجل:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُـمْ ثُـمَّ تَلِـينُ جُلُـودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الزمر ٢٣ ، فالقرآن هنا حق خالص بمحكمه، ومتشابهه، كما أنه حق خالص بمتشـابهه ومحكمه، فمثلاً الحكم بموجب هذه الآية المتشابهة في حال ما يجعله متساوياً مع الآية المحكمة، ثم في حال أخـرى، مع تبدّل الموقف، وتبدّل الحكم من خلال تشريع الآية المتشابهة، يأخذ الحكم كذلك ذات حكـم الآيـة المحكمـة، فيتحوّل المتشابه إلى محكم في القضاء والفتيا، وحق الله في كلا الآيات المحكمة والمتشابهة يتشابه مع بعضـه بعضـاً، كون ارتكاب الحرام في بعض المواقف مجاز برخصة من الله كمـا بيّنـا في الآيـتين السـابقتين مـن سـورتَي البقـرة، والأنعام.

يقول ابن عباس :(المتشابه حروف التهجي في أوائل السور، وذلك أن رهطا من اليهود منهم حيي بن أخطـب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له حيي: بلغنـا أنـه أنـزل عليـك ﴿ الم ﴾ فننشدك الله أنـزلت عليك؟ قال: " نعم " قال: فإن كان ذلك حقـا فـإني أعلـم مـدة ملـك أمتـك، هـي إحـدى وسبعون سنة فهل أنـزل غيرها؟ قال: " نعم المص". قال: فهذه أكثر هي إحدى وستون ومائـة سـنة، قـال: فهـل

غيرها؟ قال: " نعم الر" . قال: هذه أكثر هي مائتان وإحدى وسبعون سنة ولقد خلطت علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله ونحن ممن لا يؤمن بهذا فأنزل الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمّ الْكِتَابِ وَأُخَر مُتَشَابِهَاتٌ ﴾

وقد اغتنى ذلك بوجهات نظر مختلفة، يقول قتادة والضحاك والسدي: المحكم الناسخ الذي يعمل به، والمشتابه المنسوخ الذي يؤمن به ولا يعمل به. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به، وقيل: المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه لا سبيل لأحد إلى علمه، نحو الخبر عن أشراط الساعة من خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة وفناء الدنيا.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد والمتشابه ما احتمل أوجها.

وقد ذكر الطبري في تفسيره حديثاً للنبي يقول فيه: حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم، عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ إلى آخر الآية، قال: هم الذين سَمّاهم الله، فإذا أريتموهم فاحذروهم.

ولعل ذلك يجعل البعض يميل إلى غير الحق، فيقول بأنه من القرآن، ولذلك يتوجب العودة إلى المحكم الثابت للتأكد من الحق، وبذا فالمتشابه له مرجع، وهو المحكم، بيد أن هؤلاء، يأبون الرجوع إلى المحكم لغايات في نفوسهم. تستأنف السورة:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾الذين فسدت قلوبهم بالشكوك، ونزعة الميل عن الحق، والجنوح إلى النعرات، ولايعجبهم أن النبوة تنتقل من بني إسرائيل إلى نبي عربي، قرشي، مكّي، أمّي، يختتم النبوة في السلسلة الإنسانية، وهو نبي إلى جميع الثقلين من أنس وجن : ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾الذي يحتمل أكثر من تأويل، أو المنسوخ الذي يؤمَن به، لكن لايُعمل به، وهم يكتفون بهذا التشابه دون الرجوع إلى المحكم الذي جعل هذا القسم من القرآن متشابهاً، ولولا المحكم، لما كان التشابه، لأن نزول المحكم هو الذي أحاله إلى تشابه، فهم هنا يؤوّلون النصف، ويتجاهلون النصف الآخر:﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لنية إحداث شروخ في الدين، وزرع شكوك في نفوس المؤمنين، وتفعيل الفتنة، ونشرها في الناس.

ثمة تعريف لأبي مسلم الأصفهاني عن الزائغ يقول فيه: "الزائغ الطالب للفتنة هو من يتعلق بآيات الضلال، ولا يتأوله على المحكم الذي بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السامرى﴾ طه ٨٥ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى﴾طه ٧٩ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين﴾ البقرة: ٢٦ وفسروا أيضاً قوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ الإسراء ١٦ على أنه تعالى أهلكهم وأراد فسقهم، وأن الله تعالى يطلب العلل على خلقه

ليهلكهم مع أنه تعالى قال: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر**﴾ البقرة ١٨٥ ﴿**وَيُرِيـدُ اللهُ لِيُبَـيّنَ لَكُـمْ وَيَهْدِيَكُمْ**﴾ النساء٢٦ وتأولوا قوله تعالى: ﴿**زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم فَهُمْ يَعْمَهُونَ**﴾ النمل ٤ على أنـه تعـالى زيـن لهـم النعمة ونقضوا بذلك ما في القرآن كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ الرعد: ١١ ﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون**﴾ القصص ٥٩ وقال: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم فاستحبوا العمى عَلَـى الهدى**﴾ فصلت ١٧ وقال: ﴿**فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ**﴾ يونس١٠٨ وقـال: ﴿**ولكـن اللهَ حَبَّـبَ إِلَـيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ الحجرات ٧" انتهى قول أبي مسلم.

﴿**وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾شرحه، وهو شرح مبني على الزيغ الذي في قلوبهم.

الباب الخامـــس

الراسخون في العلم

يبيّن الله لرسوله في هذا الحديث منزلة الراسخين في العلم، لأن مسؤولية تكملة نشر الرسالة تقع على عاتقهم، ثم تجلو هنا منزلة أهل العلم، وخصوصيتهم في الناس، بحيث يتحولون إلى مراجع لعامة الناس، ويؤهلّهم الله تعالى كي يوقعوا عنه على الأحكام الإلهية، فهم وكلاء الله في أرضه ويحملون وكالة من الله، فيخبر الله رسوله:﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ** ﴾شرح المتشابه، وتفسيره، والمراد منه، والحكمة منه:﴿**إِلَّا اللَّـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾الذي أنزل هذا القرآن، وجعل المتشابه حكمة فيه، وفيما أرى أن الواو غير معطوفة بامتياز على الله، فأعتقد بوجوب التوقف أمام ﴿ **الله**﴾ ثم البدء بـ ﴿**وَالرَّاسِخُونَ**﴾، فإن كانت الواو معطوفة على ﴿ الله﴾ لأعطت الآية معنى بأن الله مع الراسخين : ﴿**فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾، وهذا لايعني بأن التوقف عند﴿ **الله**﴾والبدء من :﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ أنهم لايعلمون شيئاً من تأويل المتشابه، بل يعلمون شيئاً من هذا التأويل، ولكنه علم لايتساوى مع علم الله به، وبناء على قاعدة هذا العلم: ﴿**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**﴾بالقرآن﴿**كُلٌّ** ﴾محكمه ومتشابهه: ﴿**مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾، وهذا يشير إلى منزلة الراسخين في العلم، ودرجاتهم المتقدمة في القرب من الله عز وجل، وخصّهم – دون غيرهم– مما يعلم فقد قال الله:﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾فاطر ٢٨ وهي خشية بما آتاهم الله من العلم في آياته سواء في القرآن، أو في خَلق الله، فهؤلاء الذين يبتغون الفتنة ويبتغون تأويل المتشابه من آي الله، ليسوا من أهل العلم، وإنما يبغونها فتنة استناداً إلى ما يضمرون في قلوبهم من زيغ.

العلماء هم خاصة الله في أرضه وفي عباده، ولذلك تفرّدوا بخشية الله، وحباهم الله بنعمة خشيته، لقد بوأهم الله بفضل منزلة المرجعية البشرية برمتها ، فطلب من الناس الذين لايعلمون أن يسألوهم علم الله كي يعلّموهم مما آتاهم الله تعالى من العلم ، وقد أورد الله نص الآية مكررة في سورتين بقوله :﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾النحل٤٣، وكذلك : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾الأنبياء٧ .

كلما علم أهل العلم من علم الله ، بذلوا كل ما باستطاعتهم وهم يسألون الله أن يزيدهم علما ، بل حتى النبي صلى الله عليه وسلم ، أمره الله تبارك وتعالى – في السورة التي تحمل اسمه – أن يسأله المزيد من العلم بقوله : ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾طه١١٤. هنا يذكر الله "الرسوخ" والرسوخ درجة متقدمة من درجات العلم، فليس كل عالم براسخ في علمه، والعلم درجات حت تبلغ بصاحبها منزلة الرسوخ.

عندما سئل مالك بن أنس رضي الله عنه عن الراسخين في العلم قال: العالم العامل بما علم المتبع له.

ومما يُوصف الراسخ في العلم أنه العالم الذي وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق،والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم بأن الراسخ في العلم هو:

"من برَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام به قلبه، وعفّ بطنه وفرجه، فذلك الراسخ في العلم"[٨]

فأن يرسخ العالم في العلم، يعني أن يتبحّر فيه حتى يرسخ العلم فيه، ويرسخ هو في العلم، والعلم في هـذا المقـام مفتوح، وليس مقتصراً على علم القرآن، فالطبيعة برمتها تتحوّل بالنسـبة للمترسـخ في العلـم إلى قـرآن منظـور، ولذلك يسعى الراسخ في العلم أن يكون ملماً بشتى العلوم والمعارف، فتقول بأنه متبحّر في العلم، مهما سألته من أسئلة مختلفة، وجدته ملمّاً بها، فالراسخ في العلم إن وجد كتاباً عن النبات، لايقـول: هـذا لايلـزمني. بـل يقبـل على قراءته، إن وجد كتاباً عن الحيوان، لايقول: هذا لايلزمني. بـل يقبـل علـى قراءتـه، إن وجـد كتابـاً عـن الفلك، لايقول: هذا لايلزمني. بل يقبل على قراءته، إن وجد كتاباً عن الطب، لايقول:هذا لايلزمني. بـل يقبـل على قراءته،وإلى ماهنالك من علوم ومعارف يمكن له أن يزداد بها سعة في علمه، مـن ناحيـة أخـرى، فـإن هـذه العلوم المتنوعة من شأنها أن تجعل قراءته للقرآن أكثر غنى، وأكثر تدبّراً.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾٧ أصحاب القلوب المؤمنة التقية الصالحة التي ليس فيها زيغ، يحضرني هنا قـول لابن عباس يقول فيه: "أنا ممن يعلم تأويله " وحكى إمام الحرمين عن مجاهد قوله: "أنا ممـن يعلـم تأويلـه". لـذلك يسألون ربهم أن يديم عليهم نعمة الهداية: ﴿ رَبَّنَا لَا تُـزِغْ قُلُوبَنَـا﴾ اللـهم نسـألك أن تثبـت الهدايـة في قلوبنـا، ولاتحرمنا من صراطك المستقيم، لأن هدايتك لنا هي الحصن الحصين ضد الزيغ الذي يتربـص بقلوبنـا: ﴿بَعْـدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾٨ الذي تملك أن تهب الرحمة، وتملك أن تحجبها، ندرك هنا بأن الرحمة هي هبة من الوهاب للإنسان، فهو يهب الرحمة هبة، والرحمة هي هبة الله لـك، وقـد ذكـر الله كـذلك الهبـة فيالأبنـاء:﴿يَهَـبُ لِمَـنْ يَشَـاءُ إِنَاثـاً وَيَهَـبُ لِمَـن يَشَـاءُ الـذُّكُورَ ﴾الشـورى٤٩﴿وَوَهَبْنَـا لَـهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾الأنعام ٨٤﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾الأنبياء٧٢.

ثم يستأنف ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سؤالهم لله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ يوم القيامة حتى ترى كل نفس ما كسبت: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾٩ هذا ميعادك الذي وعدتنا به، ونحن نؤمن بأنك لاتخلـف معنـا ميعادك.

ثم يعود القول لله تعالى بعد أن يسأل ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾سؤالهم، لننظر ماذا يقول الله:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جحدوا وأنكروا كل تلك البيّنات، فأن يكفر المرء بشيء، يعني أنه يستكبر عن الإيمان واليقين به، رغـم علمـه ويقينه أنه الحق، ولايكتفي بذلك، بل يجعل لله شركاء، والشرك من أعظم الكفر، ثم لايقصر هذا على نفسه، بـل

[٨] يروي الطبري في تفسيره هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم:"حدثني المثنى وأحمد بن الحسن الترمذي قال، حدثنا نعيم بن حماد قال، حدثنا فياض الرقي قال، حدثنا عبد الله بن يزيد الأودي قال: وكان أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، حدثنا أنس بن مالك وأبو أمامة وأبو الدرداء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الراسخين في العلم فقال: "من برَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام به قلبه، وعفّ بطنه وفرجه، فذلك الراسخ في العلم".

يسعى ما بجهده كي يسرّب كفره إلى نفوس المؤمنين حتى يحيدهم عن إيمانهم ويجعلهم كفاراً على شاكلته، ويُدخلهم إلى منعرجات سبل ملتوية.

وقد بيّنت لك السورة أن ذلك مبعثه ﴿ زيغ﴾ في قلوبهم، وهم ينطلقون من قاعدة هذا الزيغ، إنهم يبحثون عن أي مأخذ يمكن لهم أن يأخذوا به، ولذلك ينبشون ويبحثون ويدققون في القرآن بحثاً عمّا يمكن لهم أن يتخذوه حجة لتأويلهم الخاطئ المبني أساسه على الزيغ، فلايجسرون الدنو من المحكم، فيتخذون من المتشابه سبيلاً إلى ذلك، دون أن يردّوا جوابه إلى المحكم، فهم يلغون المحكم في تأويلهم هذا، ولذلك يقول الله بانهم لايعلمون تأويله، فالعالم الذي يجتهد ولايصيب، يكون له أجر الاجتهاد، لأنه يقعد على قاعدة الإيمان، وإن أصاب، يؤجره الله بما يشاء، وفي جميع الأحوال، فإن الاجتهادات التي تصدر من أهل العلم، تكون مفيدة، وجديرة بالاطلاع عليها، سواء أأصابت، أو لم تصب، فهي محاولات للصواب، ثم أن جميع تفاسير أئمة وأقطاب التفسير رغم ما تستند إليه من القرآن، والسنة، ومنهاج قويم في مختلف العلوم الشرعية والإنسانية، فهي ليست جازمة، لأنه لايعلم بمراده غير الله، بيد أنها قد تصيب أجزاءً من المراد، وقد لاتصيب، ولهذا اغتنى القرآن بثورة التفاسير المختلفة، وليس من تفسير يلغي تفسيراًغيره، وحتى تلك التفاسير التي تسهب كثيراً في الشرح والتأويل، والحجة، والتحليل اللغوي، وتكرار الأحاديث وفق جل مراجعه، فلابد من قراءة هذه التفاسير كما هي، ومحاولات اختصارها، وتصغير حجمها، لاتغني عن أصولها، ولا تعني بأي حال من الأحوال إلغاء الأصول واستبدالها بالمختصر، وتبقى الأولوية للأصول، لأنها كُتبت، لتُقرأ كما كُتبت، وفق كل ذاك الإسهاب في الشرح،لأن المفسّر لم يكن عاجزاً عن الاختصار عندما شرع في تفسيره، بل أنه وجد الإسهاب ضرورة لمزيد من الحجة والاثبات، حتى أن بعض هذه التفاسير تجعلك ملماً ببحر من العلوم والمعارف، وهي في واقع الأمر علوم وحجج ولغويات وأدبيات تدور في فلك التفسير، وهي تقوم بعملية التفسير، وهي إضاءات في علم التفسير، فالتفاسير في مجملها تكتمل ببعضها البعض، ومُنجزات كل عصر من العصور في مختلف الميادين البشرية، تحض على تفاسير جديدة، بل هي بذاتها دعوة إلى قراءة القرآن وفق ما تم إنجازه، وبالتالي، دعوة لتقديم تفاسير جديدة متضمنة كل هذا المنجز المعاصر، وعلى هذا فإنه لوقيض لأئمة التفاسير العودة إلى المعاصر هذا، وأعادوا كتابة تفاسيرهم تلك، لأضافوا إليها مستجدّات هامة، وهم قد تركوا ذلك للأجيال التي ستعيش تلك المستجدات ويقع على عاتقهم أمر إجلاء ذلك في شروحات وتآويل جديدة لأن ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ لم تقتصر على الراسخين في العلم كأشخاص بعينهم، دون غيرهم، في زمن بعينه دون غيره ، بل شمل الراسخين في العلم في كل زمان ومكان، ورسخ في الشيء، أي تعمّق فيه أكثر من غيره، فجلا له ما لم يجل لغيره، ولذلك، فإن المفسر الجديد عليه أن يطلع على غالبية التفاسير التي سبقته في مختلف الأجيال، حتى يتمكن من الاستنارة بتلك العقول النابغة، وكذلك حتى لايُكرر قول أمر قد قيل، لأنه قد قيل وكفى وأحسن، ثم إثر ذلك يرى المداخل الجديدة التي يمكنه أن يدخل منها إلى القرآن ليستنبط الشرح الجديد الذي جلا وفق ما استجدّ في الإنجاز البشري، ومسيرة الحضارة

الإنسانية، وهذا بذاته يجعل من القرآن رسالة قابلة للقراءة في كل زمان ومكان، لكونه يكتنز بكل ما تم، وما سيتم اكتشافه، وعدم مرجعية هذه المكتشفات إلى القرآن، قد يقلّب الموازين حين استخدامها، فيتأذى بها المستخدم، أكثر مما ينتفع.

أمّا الذين كفروا، يقول الله:﴿لَن﴾بجزم﴿ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّـهِ شَيْئًا﴾فإن اعتقدوا بأنهم يستقوون بأموالهم، وأولادهم، فهم على وهم، وليس بوسع المال بالغاً ما بلغ، ولا الأولاد بالغاً ما بلغوا، أن يغنوا ﴿مِّنَ اللَّـهِ شَيْئًا﴾، وقد قال: ﴿مِّنَ﴾ ولم يقل عن، فذلك يعني: أن أحدهم لو ملك ملء الأرض ذهباً، ومَلَأَ الأرض بالولد، لما جسر ذلك أن يحول بينه وبين عذاب الله.

من ناحية أخرى، تعلم من هذه الآية بأن المال والولد زينة قابلة للزوال، وإن كان المال والولد من أعظم ما في الحياة من زينة، فإن لدى الله ماهو أعظم من ذلك، وما هو أعظم من الزينة برمتها، لديه ما هو غير قابل للزوال، يقول تبارك وتعالى:﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ق٣٥وعن ذلك يقول شارح القرآن الأول، ومعلّم الشرّاح رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله : " أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر »

﴿وَأُولَـئِكَ﴾الكفار﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ١٠ وقد جاء الواو بالفتح، وهذا يعني بأنهم هم يتحولون إلى وقود للنار، أي إلى مصادر تشتعل منها النار، لأنهم يُحرقون بنار موقدة بالأصل، وكلما تخمد تُضاف إليها الوُقود- بضم الواو- فإذن هي لاتُخمد لأن الوّقود متوافر ومتجدد، وبذلك فإنها تزداد لهباً. إن الله يبيّن لك كل هذا حتى تتقيه، حتى تمتنع عن ظلم نفسك، وظلم الناس، حتى ترتدع عن الإعتداء على حقوق الناس، حتى لاتستكبر عن الخشوع بين يدَي الله، حتى تسأله المغفرة إن كنت في فاحشة من أمرك، أو ظلمت نفسك، فإن هذه النار هي للذي يصرّ على أذى نفسه، وإلحاق الويلات بالناس، ويصر على التكبر ليس على الناس فقط، بل يرى بأنه أكبر من أن يؤمن بالله، أو يستجيب لعبادته، وأوامره.

وبيان ذلك في سورة البقرة بقول عز من قائل:﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾البقرة٢٤كذلك في سورة التحريم:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾التحريم ٦

وهي تزداد اشتعالاً كلما تكاثر فيها أهل الكفر، والنار لاتكتفي عن سعيرها واشتدادها مهما سعرت، ومهما اشتدّ لهبها:﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾من الكافرين ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ق٣٠ منهم، وهذا لايعني بأن الله لايعلم بأنها امتلأت، أو لم تمتلئ، فهو بكل شيء عليم، وهو يُعلِم - بكسر اللام- ولا يُعلَم - بفتحها- بل هو بيان للناس بأن جهنم دوماً تتسع للمزيد من الكافرين، بلغت أعدادهم ما بلغت .

إن ذلك يكون للكافر الراشد البالغ المصمم على كفره بعناد وكِبر، ولايكون لابن الكافر المجنون مهما تقدم في العمر، كذلك لايكون لابن الكافر الطفل، فإن الله جلّ ثناؤه، لايأخذ الأطفال بذنوب الكبار سواء أكانوا

أبويهم، أم كانوا غير ذلك، ولايأخذ المجانين بذنوب العقلاء مهما كانت صلة القربى بينهم، ولذلك لاتجد في النار أطفالاً، ولامجانين، لاتجد صرخات الأطفال، أو نداءات المجانين لأن هؤلاء أبرياء مما فعل آباؤهم، والإنسان مهما بلغت ذنوبه، فهو عندما يكون كبيراً، يكون باب التوبة مفتوحاً أمامه، والإنسان مهما بلغت ذنوبه، ومهما أسرف على نفسه، ومهما ارتكب من الفواحش، فإن التوبة جائزة له، بل أن القنوط من رحمة الله لايجوز له، والقنوط بذاته هو مزيد من الإسراف على النفس، في حين أن التوبة هي رحمة بالنفس، وهؤلاء افتقدوا هذه الفرصة لأنهم لم يكونوا كباراً، ولم يكونوا على رشد من أمرهم.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، في اللغة العربية، يدأب المرء في عمله، أي يجد ويجتهد، وفلان دؤوب، أي مجدّ، وهذا المعنى لايتناسب في هذا الموضع، كون الكفر ليس محموداً، فهنا يكون الدأب بمثابة الطبع الذي ينتهجه الكفار عن بعضهم البعض .يقول الله في سورة غافر:﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾غافر٣١ وهذه الآية تؤدي إلى آيتنا، فـ﴿مِن بَعْدِهِمْ ﴾يعني آل فرعون الذين سيتحولون الآن إلى:﴿من قبلهم﴾ وقد استنوا بهذه السنة، ودأبوا على هذا الدأب، وتحوّل بالنسبة إليهم إلى منهج. يقول أبو جعفر: وأصل « الدأب » من: « دأبت في الأمر دأْبًا » ، إذا أدمنت العمل والتعب فيه. ثم إن العرب نقلت معناه إلى: الشأن، والأمر، والعادة، كما قال امرؤ القيس بن حجر:

وَإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِث قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

يعني بقوله: « كدأبك » ، كشأنك وأمرك وفعلك. يقال منه: « هذا دَأبي ودأبك أبدًا » . يعني به فعلي وفعلك، وأمري وأمرك، وشأني وشأنك، يقال منه: « دَأَبْتُ دُؤُوبًا ودأْبًا » انتهى.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾وهم أسوة لهم، فباتوا يكملون بعضهم بعضاً في تسلسلهم بالتمسك بهذه السنة والدأب عليها، وهؤلاء من آل شعيب، ونوح، ولوط وغيرهم ممن سبقوهم، وأخبر الله بأن آل فرعون سيأتون من بعدهم، فالكفار ينتسبون إلى بعضهم البعض، ويلتقون جميعاً من مختلف العصور على هوية الكفروقد اتفقوا على أنهم:﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّـهُ﴾ركم بعضهم إلى بعض من مختلف العصور ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾التي اشتركوا وتسلسلوا فيها:﴿ وَاللَّـهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للدائبين على دأب الكفر.

﴿قُل﴾ يامحمد، وأنت رسولي:﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قل لهم وأنبئهم بأنكم:﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾١٢ رد جازم مباشر على تعاليهم واستكبارهم، ذلك أن الكافر به عناد شديد في الدأب على نهج الكفر، وهو عندما يُذنب، لايتوب لأنه يرى نفسه أكبر من التوبة، ويرى في التوبة استصغاراً له، بل لايريد أن يؤمن بالله رغم يقينه بوجود الله، فهو مؤمن بوجود الله، بيد أنه يستكبر على إيمانه بوحدانية الله، فالذي يوجه كلمة بذيئة لله، هو مؤمن به، وإلاّ لما وجه إليه هذه الكلمة البذيئة، بيد أنه لايكون جديراً بالهداية، فلايهديه الله، لايكون جديراً بالعز، فلايعزه الله، لايكون جديراً بالتوبة، فلايهديه الله إلى التوبة، فيبقى جنداً مجنداً للشيطان يتوه

في منغصات الحياة، والوساوس، وتداعيات الاستكبار حتى يخرج من الحياة مخرج سوء، في حين أن المؤمن عندما يجد نفسه في معصية، فإنه يسارع إلى التوبة متضرعاً إلى ربه يذرف دموع الندم.

ولذلك ترى كل هذه البيّنات التي يأتي بها الرسل، حتى يبدو كل شيء جلياً، والذي يتواضع لربه، ويسجد له، ويخر له ساجداً خاشعاً، ويذرف الدموع بين يدي ربه طالباً التوبة والمغفرة، فإن الله يستجيب دعوة الداعي إذا دعاه، والله قادر أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين لايكفر منهم فرد واحد قط، بيد أن الله يخاطب الإنسان وهذه رفعة من شأن الإنسان، ثم يتحاور مع عقله، حتى يقترب من الله، فهنا حوار بين الله، وبين الإنسان، ومن خلاله يستطيع الإنسان أن يغدو أكثر قرباً من الله، ومن خلاله يتعرف الإنسان على الله في خلقه، فيسبّحه، ويكبّره، ويسجد له، ولذلك فإن الآية تجعلك تنفتح على نفسك، وتنفتح على العالم كله، فلايكفي أن تقرأ القرآن، ثم تنام، ثم تستيقظ، فتصلي وتقرأ القرآن وتنام، بل يدفعك القرآن إلى أن تستيقظ، وتنخرط في مجالات الحياة، وتقدم نفعاً لنفسك والآخرين، أن تتعرف على خلق الله وفق الدرس الذي تلقيته من القرآن، فالقراءة ليست لهدف القراءة فحسب، بل القراءة لهدف الاستزادة في العلم، والمعرفة، والعبادة، والتطور، على هذا النحو ستكتشف بأن القرآن هو كتاب ليس بوسعك الاستغناء عنه، لأنه كتاب الله الذي يعرّفك بنفسك، ويعرّفك بالحياة، ويعرّفك بربك.

يقول مقاتل في ذلك : "أراد مشركي مكة معناه: قل لكفار مكة: ستغلبون يوم بدر وتحشرون إلى جهنم في الآخرة، فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: « إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم ».

فيما يرى محمد بن إسحاق عن رجاله، ورواه سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا: أنه لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلِموا قبل أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم» فقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾.

إن الكافر يجيز لنفسه ارتكاب كل الموبقات، دون أن يرى ردعاً بحدود الله، ويبقى مصرّاً على كفره حتى يموت على مذهب الكفر، ولذلك فإن الله يعلمه في الدنيا عن سوء مصيره، وهذا الإعلام بذاته، هو بمثابة إنذار للعودة إلى الحق، وذلك رحمة من الله بالعباد.

﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ**﴾واقعة بائنة وشاهدة﴿**فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا**﴾في جيشين، كل جيش يشكل فئة متناقضة للأخرى وعلى ذلك التقت الفئتان للحرب:﴿ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ**﴾مؤلفة من محمد صلى الله عليه وسلم ومَن معه:﴿**وَأُخْرَى كَافِرَةٌ**﴾مؤلفة من مشركي قريش، حين التقى الفريقان في بدر:﴿**يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ**﴾مَن الذي يرى

مَن:﴿**مثليهم**﴾ ؟ يُمكن أن يُستنتج من ذلك الفئة الثانية الكافرة، وقد وردت ثانياً، فأفراد هذه الفئة وهي التي تزيد أعدادها عن أفراد الفئة الأولى المؤمنة، قد جعلهم الله يروا العكس، فيروا :﴿**رَأْيَ الْعَيْنِ**﴾ أن أعداد المؤمنين ﴿**مثليهم**﴾، وقد أراهم الله تعالى ذلك، وهو في واقعه ليس كذلك، ويمكن أن يُستنتج أيضاً أن أفراد الفئة التي تقاتل في سبيل الله، يرون أنفسهم ﴿**مثلَي**﴾ الفئة الكافرة، فيمكن أن يكون أحد الاستنتاجين، ويمكن أن يكون الاستنتاجان معاً، وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً كي ينتصر المؤمنون على الكافرين:﴿**وَاللَّـهُ**﴾ من خلال هذا القتال بين الفريقين: ﴿**يُؤَيِّدُ**﴾يؤازر ويقوّي ويناصر:﴿ **بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ**﴾.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿**قد كان لكم آية**﴾ يقول: قد كان لكم في هؤلاء عبرة ومتفكر. أيدهم الله ونصرهم على عدوّهم وذلك يوم بدر، كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة عشر رجلاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله:﴿**قد كان لكم آيةٌ في فئتين**﴾. قال: هذا يوم بدر فنظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وذلك قول الله:﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم**﴾ الأنفال٤٤

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:﴿**قد كان لكم آية في فئتين...**﴾. قال: أنزلت في التخفيف يوم بدر على المؤمنين، كانوا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وكان المشركون مثليهم ستة وعشرين وستمائة، فأيد الله المؤمنين فكان هذا في التخفيف على المؤمنين وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس، أن أهل بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر. المهاجرون منهم خمسة وسبعون، وكانت هزيمة بدر لسبع عشرة من رمضان ليلة جمعة.

كما قال السدي: ترى الفئة الأخيرة الكافرة الفئة الأولى المؤمنة مثل عدد الرائين وقد كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلًا كلهم شاكو السلاح، وعن علي كرم الله تعالى وجهه، وابن مسعود: كانوا ألفًا وسقف بيت حلهم وربطهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وفيهم من صناديد قريش ورؤساء الضلال أبو جهل وأبو سفيان وغيرهما، ومن الإبل والخيل سبعمائة بعير ومائة فرس، وروى محمد بن الفرات عن سعيد بن أوس أنه قال: أسر المشركون رجلًا من المسلمين فسألوه كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر قالوا: ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا.

ومما يُروى بهذا الصدد عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فلما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا . يقول ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة فأسرنا منهم رجلًا فقلنا كم كنتم؟ قال: ألفًا.

ولكن قد تتساءل: لماذا جعل الله ذلك، فيقول الله:﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾١٤ ﴿**لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ في ذاك العهد، ثم ﴿عبرة﴾﴿**لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ فيما بعد كي يترسخ لديهم يقين بأن الله تعالى جل ثناؤه:﴿**وَيُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ سواء في بدر، أوغيرها، ثم يمكن أن يُقاس ذلك تعميماً ليشمل حتى تفاصيل الحياة اليومية، فيمكن أن يكون ذلك في نشوب الحروب بين الجيوش التي تقاتل في سبيل الباطل، والجيوش التي تقاتل في سبيل

الحق، وليس بالضرورة أن النصر سيقع للجيوش المسلمة في هذه الحروب، بل قد يهزمها أعداؤها، لأنها مسلمة، بيد أنها لاتقاتل في سبيل الحق، وهي ظالمة في شنّ حربها، وكذلك يشمل الحروب بين المسلمين أنفسهم، سواء أكانوا دولاً، أو أحزاباً، أو فرقاً، أو جماعات، أو أفراداً، ونحن نرى في زماننا اشتعال هذه الحروب في المسلمين وقد اشتدّت بعد قيام الثورات الشعبية ضد أنظمتها، فأدى ذلك إلى شقاق في صفوف المسلمين، حيث باتوا على قتال مع بعضهم البعض، فجنود الأنظمة الإسلامية تقتل شعوبها المسلمة، والشعوب المسلمة تقتل جيوش أنظمتها المسلمة.

عبرة:﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾فهي ليست عبرة عامة، يعتبر بها عامة الناس، بل هي عبرة: ﴿لِـأُولِي الْأَبْصَارِ﴾فليس كل مَن يملك عينين بباصر، وليس كل مَن لايملك عينين بغير باصر، فترى حدثاً يقع على مرآة من شخصين يريانه ﴿رأي العين﴾ لكن أحدهما يبصر ويأخذ عبرة مما بصر، والآخر لايبصر، ولاتبلغه عبرة، وهذه دعوة للإنسان بألاّ يكتفي بالنظر إلى ظاهر الأشياء، بل ينفذ بنظره كي يبصر باطنها، من أجل أن يستجلي العبرة، فبعض الناس تراه فاقداً للإحساس، ويظن ذلك فطنة، فلايبالي أن يعاهد، ولا يوفي بعهده، يتحدّث ولايصدق القول، يعد، ويخلف وعده، وإن رأى شائنة على أهله، أغمض عينيه دون مبالاة، ولذلك يوصف هذا الشخص بـ الديوث، فلا شيء يحرّك مشاعر هذا الإنسان سواء أقرأ القرآن، أو سمعه، أو قيلت له حكمة، أو قرأ كتاباً، أو وقعت أمامه واقعة، سواء إن رأيته يصلي، أو يصوم، أو يحج، فهو يدور في فلك المظاهر، دون أن تتفاعل مشاعره، وأحاسيسه قيد شعرة.

تحضّك الآية هنا كي تقوم بعملية مراجعة دقيقة لنفسك حتى يتبيّن لك إن كنت من أولي الأبصار، أم دونهم، وكيف يمكنك أن تطوّر نفسك حتى تنتقل من حالة اللا إبصار، إلى حالة الإبصار، فإن رأيت فئتين تصارعتا، أو اختلفتا، وكل واحدة تقول بأنها في سبيل الله، لاشيء يُظهر لك الحقيقة سوى إبصارك الذي يكون لك خير معين في بيان ذلك.

القتال في سبيل الله، لايعني بالضرورة أن تقتل، بل أن تدفع القتل عن نفسك، فإن أتاك شخص يحمل سيفاً كي يقتلك وينتهك مالك وعرضك، يمكنك أن تحمل سيفاً وتبدأ بأولوية إبعاده عنك، حتى ينصرف، وإن وقع في أسرك، أن تحسن إليه، وتسعى إلى هدايته، ولاتهينه، وإن رفض الهداية، فالأولوية أن تتركه بحال سبيله، لأن سلوكك الإنساني هذا قد يترك عليه أثراً في سبيله، لأن إحسانك إليه، يُذكّره بإساءته إليك، فيجلو له ساعتئذ الفرق بين المحسن والمسيء، وقد يكون ذلك سبباً في هداية هذا الرجل، ليس بقوة السيف، بل بموقف إحسان وعفو بدر منك تجاهه، وهذا بذاته شكل من الأشكال الراقية للجهاد في سبيل الله.

الباب السادس

المُزَيِّن والمُزَيَّن في: زُيِّنَ

﴿زُيِّنَ﴾ الزينة، هي المظهر، وليست الجوهر، أي تجميل البائن للعيان، فـ: ﴿زُيِّنَ﴾، جُمِّل، فقد يكون ﴿زُيِّنَ﴾ الجميل ليُصبح أكثر جمالاً وجاذبية، وقد يكون ﴿زُيِّنَ﴾ القبيح ليغدو جميلاً وجذاباً، ولذلك، فإن ظاهرها يجذب الناظر إلى اشتهائها، فالزينة تستدّعي الشهوة، كما أن الشهوة تستدعي الزينة.

لننظر إلى مفهوم الزينة في هذه الآيات :

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾الأعراف ٣١

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾الأعراف ٣٢

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾يونس٨٨

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾هود١٥

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾النحل٨

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾الكهف٢٨

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾الكهف٤٦

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾طه٥٩

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾النور٣١

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾الحديد٢٠

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾القصص٦٠

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾القصص٧٩

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾الأحزاب٢٨

إن المرأة لايجوز لها أن تتزيّن إلاّ لزوجها، ولايجوز لها أن تُظهر زينتها لغيره، لأنها مجلبة للشهوة، ولذلك يُقال بأن النساء حبائل الشيطان، وزينتها لغير زوجها باب من أبواب الفتنة، وحبل من حبال الشيطان بينها وبين الرجل.

ثبت في الصحيح أنه، عليه الصلاة السلام، قال:«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء»

عندما تتزيّن المرأة لزوجها، فإنما تفعل ذلك كي تستجلب شهوته كي يدخل في فراشها، والشارع يجيز لها ذلك، فإن كان الزوج عاطلاً عن الشهوة، بسبب داء ألمّ به، ما فعلت المرأة ذلك، لأن هذه الزينة تكون لامعنى لها، ولاهدف لها، بل قد تتسبب في إزعاج زوجها العاجز، لأنها تُذكّره بعجزه.

هناك أمر آخر في غاية الأهمية يجلو لنا في هذه الآية حول مسألة المحبة التي ماتزال لغزاً من الألغاز البشرية رغم كل ما كُتب عنها، ولعل ما كَتب عن الحب في تاريخ الآداب والفنون، فاق كل شيء دونه، ومازال الناس كما لو أنهم لم يقولوا شيئاً عن الحب، ما زال يشكّل لغزاً بشرياً بالنسبة إليهم.

فلو أمعنّا جيداً في هذه الآية، ستجلو لنا إشارات عن مفهوم الحب البشري، فمادامت الزينة ظاهرة، ومستدعية لمشاعر الحب، فإن هذا الحب هو عبارة عن مشاعر متحركة، غير ثابتة، ومتحوّلة غير مقتصرة، تجاه المظهر المزيَّن المتحرّك غير الثابت، والمتحوّل غير المقتصر، فلذلك سبقت كلمة الحب غيرها فـ ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ فالشهوة، هي حالة حب، والحب هو حالة شهوة، أي تحب بشهوة، وتشتهي بحب ، فأنت تميل للشهوة إليها، فالمرأة التي تحبها هي امرأة شهية بالنسبة إليك، ولولم تكن شهية لما أحببتها ، والشهوة إلى المرأة، هي الرغبة في مجامعتها، وليس في امتلاكها، كما بالنسبة لما سيرد من حب الشهوات إلى عناصر متاعية متسلسلة حتى تتكامل مع بعضها البعض، لأن الشهية تكتمل بالحب، والحب تتوجه الشهية، ولذلك يبقى الرجل يجد في نفسه ميلاً إلى النساء مهما تقدّم به العمر، وهو لايّسقط البتة من حساباته بأنه ربما ذات يوم سوف يتزوّج بامرأة جديدة، ومهما تعرّف على نساء، وتزوّج، فإنه دوماً يتوقع بأن الحب هو ذاك الذي سيأتي، والمرأة هي تلك التي ستاتي، ولعل العناصر السبعة التي ذكرها الله تجتمع في هذه الميزة، ميزة أن الإنسان لايكتفي معها إلى حدّ، ولكنه أحياناً يضطر إلى إقناع نفسه بأنه اكتفى، فكيف يكون قد اكتفى وزينتها تلبث مفتوحة له ما دام حياً، لكن قد يطرأ مرض على شخص ما فيؤدي به إلى عدم الشهية لبعض متاع الدنيا، وحينها يصبح في حالة يشتهي فيها أن يشتهي، لأن حب الشهوة مزيّن له والرجل يتعامل مع المرأة بلين، فهي من الجنس الناعم، وهو من الجنس الخشن، وخشونته تجعل المرأة تتودد إليه، كما أن نعومتها بالمقابل مدعاة لتودد الرجل، ولذلك ترى المرأة بصورة عامة تُبدي استلطافاً تجاه الرجال، خاصة بالمقرّبين منها، بأبيها، وأخيها، وما دون ذلك من المقرّبين في العائلة، فهي تبدي حنّية واستلطافاً تجاه الضيوف تفوق حنّية الرجل وهذا الاستلطاف ينبع من طبيعة نعومتها، لذلك ترى الابنة تتودد إلى أبيها بدرجة تفوق درجة الابن، وتتودد إلى أخيها أكثر مما يتودد الأخ لأخيه، وبالمقابل، ترى الأب يبادلها هذا التودد، وكذلك الأخ، فالذي له أخت، يلقى حناناً في البيت أكثر من الذي لاأخت له، وكذلك أن الذي له خالة يلقى حنان أمّين، ومما يُقال في ذلك أن الخالة هي الأم الثانية، فهي تمتلك أن تمنح حنان الخالة، وحنان الأم في وقت واحد لأبناء أختها.

وكون النساء هنّ الأقرب لشهوة الرجل، فقد بدأت الآية بهن، ثم تدرجت الشهوات متسلسلة بحسب أولوياتها، فبدأت بـ: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ثم: ﴿وَالْبَنِينَ﴾كون الشهوة تتوّج بالبنين، والشهوة التي تكون بلا بنين، هي شهوة غير متوّجة، لذلك عندما يظفر الرجل بالمرأة، لايكتفي بذلك، بل يفعل ما بوسعه كي يظفر بالبنين. ثم:﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾لأنه بعد ظفره بالمرأة والولد، يصبح في حالة قلق كي يقدّم الرفاهية لعياله،يدّخر شيئاً لقادم أبنائه، فيميل عقب ذلك إلى المال، ليس له، بل لأبنائه، والمال يتم سبكه بالذهب والفضة، فيتحوّل الذهب والفضة إلى قطع مالية نقدية .

يقول السدي بأن المقنطرة هي المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير، ويرى الفراء بأن القناطير المقنطرة هي المضعفة، وإذا أخذنا بهذا، فإن القناطير تعني ثلاثة، والمقنطرة تعني تسعة.

بعد أن يبلغ ذلك، يسعى إلى تحقيق شهوات أخرى، تذكرها الآية وفق دقة تسلسلها، وهي مجتمعة تحقق له متعة الظفر، والاستمتاع بما ظفر، فتذكر الآية عقب ذلك: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي المُعْلمة ، أو المطهّمة الحِسان.

تقول عائشة، رضي الله عنها:لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء إلا الخيل، وفي رواية:من الخيل إلا النساء.

يقول الإمام أحمد:حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سُوَيْد بن قيس، عن معاوية بن حُدَيج، عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيّ إلا يُؤذَنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْر يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ:اللَّهُمَّ إنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي من بَنِي آدَم، فاجْعَلنِي مِنْ أحَبِّ مَالِهِ وأهْلِهِ إليه، أوْ أحَبِّ أهْلِه ومالِهِ إليهِ » .

وورد في الخبر : وفي الخبر من حديث علي عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق الفرس من الريح ولذلك جعلها تطير بلا جناح".

وفي الخبر: "إن الله عرض على آدم جميع الدواب، فقيل له: اختر منها واحدا فاختار الفرس، فقيل له: اخترت عزك".

في مصنف أبي داود عن عتبة بن عبدالسلمي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابها مذابها ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير".

وعنه صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الشيطان دارا فيها فرس عتيق " . كذلك: "خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم ثم الأقرح المحجل طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية"[9]

[9] أخرجه الترمذي عن أبي قتادة

. وفي مسند الدارمي عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أريد أن أشتري فرسا فأيها أشتري؟ قال: " اشتر أدهم أرثم محجلا طلق اليمين أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم " . وروى النسائي عن أنس قال: لم يكن أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل. وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر ".

وروي عن ابن عباس: تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها. وقال عباد بن عبدالله بن الزبير وهشام بن عروة والكلبي: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم. وقال ذلك عبدالله وعروة ابنا الزبير. وقال عبدالله: كانت ملاءة صفراء اعتم بها الزبير رضي الله عنه.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾تأتي في الترتيب القرآني السادس، والأنعام، سورة من سور القرآن، والأنعام محبوكة من النعومة، فهي تعني الحيوانات الناعمة، الأليفة، كذلك تلك التي تهب النِعم للإنسان، وتحقق له الطمأنينة، ويستمتع بجمالية النظر إليها، فهي حيوانات ناعمة جميلة آمنة، وعلى الأغلب تأكل ما يعزز ألفتها مثل الخضرة، والخبز، والشعير، والقمح، عكس الحيوانات الشرسة التي تأكل اللحوم، مثل الأسود، والفهود، والنمور، فهي شرسة، وليست أليفة، وخشنة، وليست ناعمة، والنظر إليها يبعث الرعب أكثرمما يبعث الأمن، بل حتى أصواتها تحمل الفزع، وكذلك نظراتها، وحركاتها، وهيآتها بصفة عامة، فانظر إلى جمالية مشية الإبل وهي تمشي الهوينى بنعومة، وكذلك مشية الغنم، ومشية البقر، ومشية الماعز، سواء في الصباح، وهي تخرج إلى المراعي، أو في المساء وهي عائدة إلى بيوتها محمّلة بنعم الله ، فالأنعام ما يجني منها الإنسان النعم، مثل الحليب، واللبن، والسمن، والقشدة، والغزل، والنسيج، وأطايب اللحوم، وهذا يتحقق في الأغنام، والبقر، والماعز، والإبل، وما إلى ذلك من مواشي ترعى، ولاتفترس، وهذه الأنعام مبعث ألفة حتى في أصواتها، ونظراتها، وجمالية هيآتها، والإنسان يميل إلى امتلاكها لأن كل ما فيها نفع في نفع، فهي إذن تروي لديه عاطفة حب الشهوة، أي الرغبة في الملكية، لذلك ترى أن سائر المدن الصغرى، والكبرى، فيها أسواق لهذه الأنعام، وعندما تدخلها، ينتابك شعور بأنك دلفت سوقاً آمناً، لأنك تكون محفوفاً بسائر أنواع الأنعام.

وبهذا الصدد جاء في سنن ابن ماجة عن عروة البارقي يرفعه قال: "الإبل عز لأهلها والغنم بركة والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة" . وفيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الشاة من دواب الجنة " . وفيه عن أبي هريرة قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال: عند اتخاذ الأغنياء الدجاج يأذن الله تعالى بهلاك القرى. وفيه عن أم هانئ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: " اتخذي غنما فإن فيها بركة "[١٠]

﴿وَالْحَرْثِ﴾ثم انظر إلى تكاملية مقومات هذه المتاع التي تثير رغبة الإنسان إليها، وهل هناك ما يمكنه أن يُغني عن الزرع، فحتى كبار الأغنياء الذين يمتلكون بيوتاً وقصوراً فارهة، تراهم يميلون إلى امتلاك المزارع الخاصة بهم

[10] أخرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه عن أم هانئ، إسناد صحيح.

في الأرياف والقرى، لأن الزرع يحقق سكينة للإنسان، فالمزارع، أو الفلاح، عندما يدخل حقله، أو بستانه، ينسى ما ألمّ به من هم، ومن هنا فحتى البيوت الصغيرة في قلب المدن، يميل سكانها إلى ترك فسحة للزرع فيها، بل حتى المكاتب في الطوابق والأبنية، تحتوي على مزروعات صناعية، فترى أن هؤلاء يمضون إجازاتهم، أو أوقات استراحاتهم في مزارعهم، والذي لايملك مزرعة خاصة، فمزرعة الطبيعة هي مزرعته العامة، لذلك ترى الناس يمضون أيام أعطالهم في الطبيعة، وهم يستمتعون فيها بتناول طيب طعامهم، ولذيذ شرابهم، والترفيه عن أنفسهم.

يقول الإمام أحمد:حدثنا رَوْح بن عبادة، حدثنا أبو نعامة العدوي، عن مسلم بن بُدَيل عن إياسِ بن زهير، عن سُويد بن هُبَيرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خَيْرُ مَالِ امرئ لَهُ مُهْرة مَأمُورة، أو سِكَّة مَأبُورة "[11]

يقول النبي: "احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا " ويقول: " احرثوا هذا القرآن " وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من مسلم غرس غرسا أو زرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " .

الحرث، هي الأرض القابلة للحراثة، فيملكها المرء، ويحرثها، لأنها دون حراثة تكون بوراً، ولاتكون حرثاً، فهي أرض قاحلة لازرع فيها، وهي غير مزيّنة، وبالتالي فإن الإنسان لايشتهي الصحراء، أو يمضي إجازته في صحراء قاحلة، أو حتى يملك صحراء، وقد جعل الله عز وجل امرأة الرجل، حرثاً له، لأنه يحرثها، كما أن الرجل لايشتهي أن يتزوج بامرأة عجوز لاتصلح لتكون حرثاً له.

تبيّن الآية أن الإنسان كائن لايكتفي عند حدّ من الدنيا، فهو كلما بلغ متاعاً، تاقت نفسه إلى متاع آخر، وكلما بلغ مراده من أشياء، تاق إلى السعة، و إلى تحقيق أشياء أخرى، وقد وردت جميعها بصفة الجمع، وورد المُزَيَّن له كذلك بصفة الجمع، فلا رجل مستثنى، ولا امرأة مستثناة، وهي إشارة بأن الرجل يميل إلى النساء، كما أنه يميل إلى الأبناء، ثم إلى ما ذكر الله، وهي زينة يصعب على الإنسان تحقيقها جميعاً في وقت واحد، لكن حتى الواحدة منها لايبلغ المرء مبلغ الإشباع والاكتفاء منها، لأن زينتها قائمة له ما دام حياً يُرزق، وهذا من بابه الإيجابي يحضه على العمل، والحيوية، والنشاط، فهو عليه أن يبذل الجهد حتى يحقق لنفسه ما تتوق إليه، فبالمال يمكنه أن يملك الخيل المسوّمة، وبه، يملك الأنعام، وبه يملك الحرث، ولن يكون بوسعه فعل ذلك دون أن يوسّع في عمله، وكلما وسع في عمله، انتفع الآخرون جراء ذلك، لأن يحتاج إلى عمّال ومعاونين له في سعة أعماله، ووفق ذلك تمضي عمارة الحياة، وعمارة الإنسان.

بعد هذا الشرح، ليس بوسعنا أن نستكمل الحديث دون أن نعود إلى الكلمة التي استُفتحت بها الآية: ﴿زُيِّنَ﴾ لنرى مَن المُزيّن، والحقيقة: لانعرف. لأن الكلمة لاتُشير إلى أحد، لكنني آثرتُ أن أقدّم كل ذاك الشرح، ثم أعود إلى الكلمة لأقدّم بعض التوقع، ولا أعتقد أنّ غيري قد تجاوز التوقع، ليس في هذه الكلمة

[11] المأمورة الكثيرة النسل، والسّكّة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

فحسب، بل في سائر كلم القرآن الحكيم ، فلا يوجد لدينا من حجة ما هو أصدق من القرآن والسنّة، ولكن هذا لايعني بأن الإصابة تكمن في أنك تقدم آية كمستند وحجة لتُثبت بها معنى آية أخرى، أو تستند في تفسيرك وتأويلك وتحليلك إلى الأحاديث النبوية، أو أحاديث بعض الصحابة رضوان الله عليهم. وهو توقع خاضع للإصابة بدرجات متقدمة، وخاضع للخطأ بدرجات فادحة، وهذا مكمن سرّ بقاء شمس القرآن مشرقة دون أن تخضع للغياب في أي زمن.تكمن المسألة هنا بأننا نتعلم اللغة العربية، ونتحدّث بها حديث الناس للناس، حتى أخذت الكلمات تشير إلى معانيها في ذاكراتنا من كثر استخدامها، لكن عندما يُنزل الله قرآناً باللغة العربية، ولعلها المرة الأولى التي ينزل فيها كلام الله باللغة العربية، والمرة الأولى التي يكون فيها الرسول والنبي عربياً خلال التاريخ البشري برمته، وذلك تشريف للغة العربية أولاً، ثم تشريف لأمة العرب ثانياً، فإن كلام الله سبحانه وتعالى يختلف عن كلام الناس، كونه أكثر رقياً، وأكثر غنى وتوظيفاً لمعاني هذه الكلمات، ثم أن الذي يتحدّث هنا، هو الله تبارك وتعالى، فإذن علينا أن نرتقي إلى فهم كلام الله، ولذلك فإن القرآن يدعو إلى التفكر، والتعقل، والتدبر في القرآن أكثر مما يدعو إلى قراءته، لأن الناس جميعاً يقرأون القرآن، لكن لعلهم لايبلغون تلك المراتب التي يتلقون فيها كلام الله ويتفاعلون معه، من هنا فإن الذين يقرأون القرآن قراءات تدبرية تعقلية، تفكرية، جعلهم الله تعالى مراجع لعامة الناس الذي لايبلغون تلك المراتب، وأسماهم الله:﴿ **أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ أي أهل القرآن، فالقرآن لم ينزل ليُقرأ فحسب لمجرد القراءة، بل ليُقرأ ويُفهم، لأن المطلوب هو العمل بما قد قرأ القارئ ، وليس المطلوب هو القراءة تلو القراءة لمجرد القراءة، وذلك من أولويات ما يُعنى به علم التفسير القرآني، الذي تكمن مهمته في دعوة الناس إلى فهم القرآن، لأن الراسخ في علم القرآن يمكنه أن يبلغ درجات متقدمة من فهم القرآن، وبالتالي يكون أهلاً للمرجعية القرآنية بحسب ما شرّفه الله بهذه المرجعية: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾النحل٤٣ ومَن أكثر من المفسر استيعاباً وفهماً للقرآن، ولذلك يرجع إليه أئمة الفقه، والفكر، وسواد الناس، فإن ما قدّمه المفسرون عبر التاريخ القرآني، هي علامات فقهية وعلمية بارزة، لايجوز الاستغناء عنها، أو تجاهل بعضها، فهي جميعاً تتكامل ببعضها البعض من مختلف الأحقاب الزمنية، وفق التسلسل الحضاري للإنسان. ولذلك فإن المجتهد في شأن علم القرآن، عليه أن يطلع عليها جميعاً، أو ما استطاع إليه سبيلاً، حتى يكون على اطلاع بما قاله الأولون، والأسبقون، وهذا التراث الفقهي والعلمي يُشكّل بنية له، ومن هنا يدرك إن كان بوسعه أن يقول ما لم يقله غيره، أن يكتشف ما لم يكتشفه غيره، أي أن يضيف علامات مضيئة إلى ذاك الإرث الفقهي والعلمي في علوم القرآن، وقد يكون ذلك لأنه أكثر إبحاراً ورسوخاً وذكاءً ونبوغاً من كل أولئك، وقد يكون أنه مثلهم، لكن المنجز الإنساني، وما ظهر بحكم الزمن أعانه على اكتشاف هذا الجديد، الذي لم يكتشفوه، لأنهم لم يدركوه، وقد يكون أقل منهم ذكاءً وعلماً وفقهاً، بيد أن المنجز الإنساني، وعامل الزمن أعاناه على اكتشاف ما لم يكتشفوا، وتفسير ما لم يفسروا.

﴿ذَلك﴾ المذكور السبع وما يتفرّع من أصله إنما هو:﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، و﴿ ذَلك﴾ تجميع لها، ويمكن ان يكون تصغيراً لشأنها عند الله، على قدر ما هي كبيرة وعظيمة عند الإنسان، لأن: ﴿ذَلك﴾ هذه تشمل كل ما في الدنيا من متاع، وأقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغه في حياته الدنيا، وقد جمعها الله كلها وجعلها مجتمعة في كلمة صغيرة لتعلم بأن: ﴿ذَلك﴾: صغيرعندالله،بل لايرتقي كي يصلح حتى يصبح مع ماعندالله،ولايصلح سوى للدنيا، ثم يزول بزوالها.

ثمة قصيدة للمتنبي يقول فيها:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

يذكر الله تعالى﴿ ذلك﴾في موضع آخر، لكن سياقها يختلف من حيث وصف الله، فيقول في سورةالبقرة:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة٢وهذا رفع وشأن لما أشارت إليه كلمة ﴿ذلك﴾وهو القرآن، في حين أن – ذلكتنا – هذه مختلفة، فيصف الله مضمونها وما تشير إليه بأن: ﴿ذلك﴾إنما هو:﴿متاع الحياة الدنيا﴾

وهذه العناصر المذكورة التي تتضمنها الـ ﴿ذلك﴾ ليس منهياً عنها، فيجوز للإنسان أن يمتع بمباهج الدنيا، وقد أمر الله تعالى رسوله قائلاً:﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾القصص٧٧ ولاأرى أن نكتفي بهذا الاستشهاد ، بل أن نستأنف قراءة الآية حتى لا يُستَشهد بها مّجزّأة:﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾القصص٧٧أن تَحسن، أي أن تعطي زيادة عمّا فرضه الله عليك، وهذا يُعدّ من باب الشكر لله على إحسانه لك بأن أعطاك زيادة عن حاجتك، وربما زيادة عمّا سألته إياه، فتشكر الله، بأن تعطي الإنسان وتعبر عن شكرك لله بأن تطيعه، فتحسن:﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾وأنت تقرأ قول ربك:﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾الرحمن٦٠فهذا المتاع الذي متعك به الله، عليه أن يزيدك شكراً لله، لأن ملكية المتاع أحياناً قد تؤدي إلى الأنانية، فيقصره المرء على نفسه، ويحجبه عن الآخرين، أو قد يتحوّل إلى محتكر للنعمة، وبذلك يؤذي الناس، فيقول الله في استئناف الآية المّستَشهد بها على قولنا:﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾القصص٧٧.والله يأمر بالإحسان حتى تدوم على الإنسان المحسن الشكور نِعم الله، فإن بغى الفساد مستغلاً ما أنعم به الله عليه، جعل نفسه في زمرة مَن لايحبهم الله.

الآن يمكننا أن نقول بأن المزيِّن إنما هو الله عز وجل، لأن هذا " المزَيَّن" يمكن أن يفضي بالإنسان إلى خير كثير. لننظر إلى الآيات التي يبيّن فيها الله بأنه هو المزيّن:

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام١٠٨

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾الحجر١٦

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾النمل٤

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾الصافات٦

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾فصلت١٢

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ق٦

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾الملك٥

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾الحجر١٦

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾الكهف٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾النمل٤

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾الصافات٦

﴿وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾الحجرات٧

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ق٦

ولايجوز أن نكتفي بهذا القدر، ونمضي شطر الاستئناف، بل علينا أن نعود مرة تلو أخرى إلى كلمة ﴿زُيِّـنَ﴾، لأن الأمر يحتمل أن يكون " المزيِّن" هو الشيطان، فبدل أن يؤدي حب الشهوة لامرأة جميلة إلى طرق بابها وطلب يدها للزواج، يؤدي إلى طرق نافذتها خلسة، ولعل الرغبة في الثروة، يؤدي بصاحبها إلى سبل ملتوية بغية الغنى السريع، وهذا الغنى السريع يتحوّل إلى عملية آلية لتكديس الأموال فحسب، فلم يعد هذا " المكدِس" يصلح لشيء البتة سوى تكديس المال، واكتناز الذهب والفضة، فلا أحد ينتفع منه بشيء، ويتحوّل هذا الكائن إلى وبال وعبء على نفسه وعلى المجتمع، فلا يفيد نفسه بهذا المال، ولايفيد عياله، ولايقدم فائدة للناس، بل يقوم باستغلال حاجاتهم كي يلحق بهم المزيد من الأذى بما يملك من أموال، وقس هذا على سائر ما يمكن لهذا الكائن أن يملكه، وفي النهاية فإن كل ما يملكه هذا الكائن ينقلب عليه، فتنقلب عليه المرأة التي عاشرها حراماً، ينقلب عليه أبناؤه، ينقلب عليه ماله.

لننظر كيف أن الشيطان هو المزيّن في الآيات التالية:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾الأنفال٤٨

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾الأنعام٤٣

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾الحجر٣٩

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾النحل٦٣

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾النمل٢٤

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾العنكبوت٣٨

فتكون هذه الزينة سبباً في خسارة هذا الشخص لدنياه وآخرته، ويكون الشيطان قد حقق منه مراده جراء تلك الزينة التي زيّنها له، إذن، يمكن أن يُفهم بالعودة مرة أخرى إلى﴿ زُيِّنَ﴾ أن مرد ذلك يقع على عاتق الإنسان الذي يمكن لهذه الزينة أن تصلحه، كما يمكن لها أن تفسده، فإن أصلحته، فقد زيّنها الله تعالى له، وإن أفسدته، فقد زينها الشيطان له، فإن بحثنا عن كلمة ﴿ زُيِّنَ﴾ كما هي، نرى أنها تشير بأن المُزَيَّن إنما هو أمر غير محمود، وهذه الآيات هي:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ البقرة ١١٢

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام١٢٢

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾التوبة٣٧

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾يونس١٢

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾الرعد٣٣

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾فاطر٨

﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾غافر٣٧

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾محمد١٤

﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾الفتح١٢

بالعودة إلى آيتنا، نرى بأن الله يختتمها بقوله:﴿وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾١٤فهذه المتاع السبع، وهي على ما يظهر مع ما يتفرّع منها، أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغه، أو يسعى إلى تحقيقه، وهي محكومة بالزوال، ولذلك يُقال بأن الذهب سُمي ذهباً لأنه يذهب، والفضة سُميت فضة لأنها تنفض، وقد أتى الإنسان من الله، وإليه يؤوب، وهو القائل جل ثناؤه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾الغاشية٢٥

والله عنده ليس أحسن من تلك المتاع السبع فقط، ولا حُسنها فحسب، بل: ﴿عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

﴿وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، لايعني بأن ذلك المذكور في الآية منهي عنه، أو أنه من المحظور، فهو يمكن أن يكون محظوراً، ويمكن أن يكون مباحاً، ولذلك كان كل هذا الحديث عن هذه الآية ممكناً.

الآن ننتقل إلى الآية التالية، وهي مستكملة لها، فبعد كل ذلك، يأمر الله رسوله بأن: ﴿ قُلْ﴾ يامحمد للناس: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ و﴿ذَلِكُمْ﴾ هذا، هو الـ ﴿ ذلك﴾ ذاك، نبأ يأتي به رسول الله من ربهم إليهم، فقل لهم يامحمد بأن: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ﴾ في الدنيا لهم :﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة:﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ﴾وهذا هو تفصيل لـ ﴿حُسْنُ الْمَآبِ﴾ في الآية السابقة، وهذا جملة يختلف عمّا في الدنيا بكل شيء،فكأنما كل ذلك كان حلماً، وهذه هي اليقظة، كأنما كل ذلك كان سراباً، وهذا هو الواقع، كأنما كل ذلك كان ظاهراًن وهذا هو الجوهر، كأنما كل ذلك كان القشر، وهذا هو اللب. فجنّة الأرض غير مكتملة، وكذلك زائلة، بينما جنّة الآخرة تغتني بكل ما يمكن للمرء أن يشتهيه، وكل ما فيها هو مختلف عمّا في

الدنيا، كذلك هي باقية والإنسان يكون خالداً فيها، دون قلق من مرض، أو موت، أو خوف من برد، أو جـوع، أوفقر، ونساء الآخرة يتميّزن عن نساء الدنيا بأنهن مطهّرات، كذلك يحظى أهـل الجنّـة برضـوان :﴿ **مِّـنَ اللَّـــهِ وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾١٥قل لهم يا محمد بأن ربكم بصير بكم، كل ما تقدمون عليـه سـرّاً وعلانيـة يجـري تحـت بصره لايخفى عنه شيء مما تقومون به، وكلما تقومون به هنا، سترونه بانتظاركم هناك.

الباب السابع
المستغفرون بالأسحار

ثم ننتقل إلى الآية التالية التي فيها بيان سابقتها، فَمَن هم هؤلاء الذين سيظفرون بكل نعم الله التي هي: ﴿خَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يقول الله بأنهم: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾١٦ ثم ننتقل إلى الآية التالية التي تبيّن الأفعال التي تترتب على:﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فالقول يبقى في دائرة القول، إن لم يصدقه العمل، فما هو عمل هؤلاء الذين منّ الله عليهم، فأدخلهم الجنّة، تجيب الآية : ﴿الصَّابِرِينَ﴾

هنا نقف إزاء مزايا الإنسان الصابر، كم أنه يبلغ مستويات النضج في مواقف الصبر التي يقفها، كم تغتني نفسه بمزايا صبره، كم ينتفع الناس من ترسّخ عقيدة الصبر في مذهبه، وقد بلغ من خلال سلوك الصبر الذي انتهجه في حياته مرتبة الصبر بامتياز، وجدارة واستحقاق برحمة وتوفيق من الله جل جلاله، عندما يشهد الله على إنسان بالصبر، فهي براءة له من رب العزة.

يستعين الإنسان بطاقة الصبر من أجل مواجهة وقائع وأحداث الحياة التي تواجهه كي يتقبلها وينسجم معها من أجل أن يبعد عن نفسه اليأس ، ويستمر في الحياة .

كلما استعان الإنسان بالصبر ، ازداد نضجاً ، وحكمة .

ليس بوسع الإنسان أن يتخلى عن الصبر بأي حال، لأنه بحاجة إليه في كل لحظة ، في كل موضع.

يقول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾الأحقاف ٣٥.

وهم أربعة رسل ممن صبروا على ما أصابهم

نوح ، وإبراهيم، وموسى ، وعيسى، ثم يكون خامسهم :محمد، عليهم الصلاة والسلام ، وهؤلاء هم أصحاب الشرائع . إذن فقد بلغ الأنبياء والرسل منزلة العزم بما صبروا، ومّما أورده لك عن الصبر في القرآن:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾البقرة٤٥

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾البقرة ١٥٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾آل عمران٢٠٠

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾البقرة ١٥٥- ١٥٦

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾الزمر١٠

ويُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "النصر في الصبر".

وقوله : "الأناة من الله تعالى، والعجلة من الشيطان"

ثم :﴿وَالصَّادِقِينَ﴾عندما تصدق في قولك، تقول قولاً، فيُصدّقك الناس، فيتحوّل قولك فيهم إلى دليل وحجة لأنك بلغت في صدقك مبلغاً متقدماً، فجعلك الله عنده صادقاً، وشهد لك بالصدق.

أخرج الإمام مالك من حديث صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا : يارسول الله أيكـون المـؤمن جبانـا ؟ قال: نعم ، قيل له : أيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" يُطبع المؤمن علـى كـل شـيء إلا الخيانة والكذب "[١٢]

ومما جاء في التنفير من الكذب ما أخرجه الإمام الترمذي من حـديث عبـد الله بـن عمـر رضـي الله عنهمـا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ماجاء به".

ويُروى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "عليكم بالصدق فإن الصدق يهـدى إلى الـبر وإن الـبر يهـدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهـدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا".

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ترك الكذب وهو باطل، بُـني لـه في ربـض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق، بُني له في وسطها، ومن حسن خلقه بنيله في أعلاها. وقيل: هذا الحديث حـديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك.

وعن بن أبي مليكة عن عائشة قالت: "ما كان خلق أبغض إلى رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم مـن الكـذب ولقد كان الرجل يحدث عند النبي صلى الله عليه وسلم بالكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منهـا توبة"[١٣]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يستشهد، ويحلف الرجل ولا يستحلف "

وعن أبي الحوراء السعدي قال:" قلت للحسن بن علي ما حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قـال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دع ما يريبك إلى مالا يريبك" فإن الصـدق طمأنينـة، وإن الكـذب ريبة[١٤]

وعن بلادبن عصمة قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول ، وكان إذا كان عشية ليلة الجمعة قام ،فقـال ": إن أصدق القول قول الله ، وإن أحسن الهدي هدي محمد ،والشقي من شقي في بطـن أمـه، وإن شـر الروايـا روايـا الكذب ، وشر الأمور محدثاتها ".

---

[12] قال الحافظ ابن حجر : أخرجه البزار وسنده قوي

[13] قال أبوعيسى هذا حديث حسن، وقال الترمذي : حديث حسن

[١٤] أبو الحوراء السعدي اسمه ربيعة بن شيبان قال: وهذا حديث حسن صحيح حدثنا بندارحدثنا محمد بن جعفر المخرمي حدثنا شعبة عن بريدة، فذكر نحوه

ويقول النبي :"من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته".

كذلك: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾الذين يطيعون الله حتى يبلغوا مرتبة القنوت في طاعته. والقنوت، ملازمة الطاعة والدوام عليها. في مسند أبي محمد الدارمي عن أبي سعيد الخدري قال:"من قرأ في ليلة عشر آيات كتب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر".

وفي صحيح البستي عن عبدالله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين".

﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾الذين ينفقونأموالهم خالصة في سبيل اللهسراً وعلانية، يُنفقون، ولايترددون في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، فيقبل الله منهم ما ينفقوا في سبيله، وابتغاء مرضاته، فيميزهم بميزة المنفقين، ويجعل لهم هذه الصفة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾١٧

تقول تسحّرتُ للصوم، وهو الوقت الذي يسبق الفجر، فإن جاء الفجر ما عاد الوقت اسحاراً، ونهوضك هنا لايكون للتسحّر، بل للاستغفار، وهو وقت مبكّر يلتذ فيه النوم، بيد أنّك تقاوم لذّتك، وتتجه إلى ربك بالاستغفار في ذاك الوقت المبكّر الذي يكون فيه الناس نيام، والوقت هو الأنفاس الأخيرة من ظلمة الليل، ودنو الأنفاس الأولى من فجر صبح جديد، عندئذ سوف تدب الحركة في الناس، وقد أشرقت عليهم شمس يوم جديد، وتكون أنت قد شهدتَ تلك الأنفاس مستغفراً ربك.

فانظر إلى مزايا ذاك الوقت دون غيره، حيث أن الله تبارك وتعالى ينزل من عرشه إلى السماء الدنيا في ذاك الوقت كي يستجيب لهم.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يتنزّل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني فأعطيَهُ، من يستغفرني فأغفرَ له" وفي رواية لمسلم "من يُقرِض غير عديم ولا ظلوم؟ حتى يطلع الفجر" وفي رواية لغيرهما "هل من تائب فأتوبَ عليه: من ذا الذي يسترزقني فأرزقَه؟ من ذا الذي يستكشف الضر فأكشفَ عنه، ألا سقيم يستشفي فيُشفى"؟

وفي هذا يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

"بلغنا أن داوود عليه السلام سأل جبريل عليه السلام فقال: يا جبريل أي الليل أفضل؟ فقال: يا داوود ما أدري، إلا أن العرش يهتز في السحر" .

إنك في ذاك الوقت، تنهض ، وتستغفر الله كي يغفر لك ذنوبك، وتسأله ما تشاء من حاجتك إليه، وكلك حاجة إليه، حتى بتَّ تداوم على ذلك فجعلك الله عنده من :﴿ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

تسأل ربك المغفرة دون أن تقنط من رحمته ، وسيّد الاستغفار كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلك أن تستغفره بقولك: " اللهم أنت ربي، لا إله إلانت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفرلي إنه لايغفر الذنوب إلاأنت" .

في ذاك الوقت الساكن، حينما ينهض المستغفرون بالأسحار، ترى أن الذين يظلمون أنفسهم أيضاً يقومون بأعمال شائنة في ذاك الوقت، حيث يقومون بالسطو، والجنايات والناس نيام، وذلك بدل أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، وهم يعتقدون أن ما يجنونه من خلف ذلك يحقق لهم انتصاراً، وفي واقع الأمر فإن كثرة المال في كثير من الأوقات يكون شرّاً لصاحبه، فهذا الشخص عندما يموت يعجز أن يأخذ معه شيئاً من هذه الأموال، بل أن غيره سينعم بها، وهو سيُسأل عنها في الدنيا حيث يقول الناس بأنه جناها بطرق غير مشروعة، إنها حقوق الناس، وقد سلبها منهم مستغلاً منزلة، أو سلطاناً، أو إدارة، ثم أنه في الدار الآخرة حيث يكون، لايفلت من السؤال عنها، ويلقى العقاب فيها، فيكون قد ألحق الظلم بنفسه، وهو في غنى عن ذلك، فخير المال هو الذي يجهد المرء في تحصيله بالشقاء والكد، وخير الإنفاق ما ينفقه في سبيل الله تعالى، وذلك هو المنتصر والظافر الحق حيث انتفع هو وعياله والناس من ماله في الدنيا، فأدى ذلك إلى نفعه في الآخرة، عكس الآخر الذي تضرر هو وعياله والناس من ماله في الدنيا، فأدى ذلك إلى خسارة له في الآخرة.

روى عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل".

ومما يُروى، أنه سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أيُّ الدعاء أسمع؟. قال صلى الله عليه وسلم : "جوفَ الليل، ودُبُرَ الصلوات المكتوبات"

يقول نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً: كان ابن عمر يحيي الليل صلاة ثم يقول: يا نافع أسْحَرْنا؟ فأقول لا. فيعاود الصلاة، فإذا قلت له نعم، قعد يستغفر الله تعالى حتى الفجر.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخرج من ناحية داره مستخفياً وقت السحر، وفي رواية: كان يُسمَعُ ذلك من داره وقت السحر فيقول: اللهم إنك دعوتني فأجبتك، وأمرتني فأطعتك، وهذا السحر فاغفر لي، فقيل له في ذلك، فقال: إن يعقوب عليه السلام حين سوّف بنيه – أي وعدهم بأن يستغفر لهم وقال لهم "سوف أستغفر لكم ربي" – أخرهم إلى السحر، لأنه وقت إجابة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: لِم أخَّرَ يعقوب عليه السلام بنيه في الاستغفار؟ قال "أخرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب".

وقد روى الترمذي في حديث طويل، وحسنه الحاكم، وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه يقول صلى الله عليه وسلم: وقد قال أخي يعقوب لبنيه "سوف أستغفر لكم ربي" يقول "حتى تأتي ليلة الجمعة".

وروى أنس بن مالـك رضـي الله عنـه قـال: "أمرنـا رسـول الله صـلى الله وسـلم أن نسـتغفر بالأسـحار سـبعين استغفارة".

الباب الثامن

شهادة اللـــه

كيف تؤمن بأن الله واحد لاإله إلا هو، مرجعك في ذلك هو الله ذاته الذي يشهد لك بذلك، ثم الملائكة، ثم ترى أولي العلم يشهدون بوحدانية الله تبارك وتعالى.

بعد المحورين السابقين من هذه السورة، نلج بفضل الله تعالى المحور الثالث الذي يبدأ بـ :

﴿شَهِدَ﴾بمعنى أثبت، وأخبر﴿اللَّـهُ﴾ربكم﴿أَنَّهُ﴾الله﴿ لَا إِلَـهَ﴾لارب﴿ إِلَّا هُـوَ﴾الله، لكـن الإنسـان يميـل إلى اليقين كي يطمئن قلبه، ولذلك يثبت الله للإنسان وحدانيته من خلال آياته في الكون، وفي الإنسان ذاته.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : " خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد بنفسه لنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّه أَنَّه لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾" .

إن الله تبارك وتعالى يُعلم الناس بوحدانيته، لأن شهادة الله، تعني إخباره، وإعلامه للناس بهذه الوحدانية، ثم بعد ذلك:﴿ وَالْمَلَائِكَةُ﴾يشهدون بشهادة التوحيدوهم على علاقة تواصلية يومية، لحظة بلحظة مع الله، وكذلك مع الإنسان في سائر شؤون حياته، ولذلك فإن الإيمان بالملائكة، يعني الإيمان بربهم، وتصديق الملائكة يؤدي إلى تصديق ما يأتون به من الله للإنسان.

يقول الإمام أحمد:حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، حدثني جبير بن عَمْرو القرشي، حدثنا أبو سَعِيد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام، قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ « وأَنَا عَلَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ يا رَبِّ » .

وفي بعض الحديث : " إن من قرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو... ﴾ الآية، خلق الله سبعين ملكا يستغفرون له إلى يوم القيامة ".

فقد بيّن الله هذا التوحيد، ثم شهد الملائكة على ذلك، ثم: ﴿وَأُولُوا الْعِلْـمِ﴾ يُكرم الله تبارك وتعالى أولي العلم بهذه المنزلة، فيجعلهم شهداء معه ومع الملائكة على وحدانيته، لأن الله آتاهم من العلم بما رسّخ هذا الإيمان في قلوبهم، فباتوا في درجات متقدمة من اليقين، حيث يبلغ هذا اليقين بهم درجات متقدمة من الله، وعندذاك يتأهلون لتقديم شهادتهم لأنفسهم، وللناس، فيستطيعوا أن يتركوا أثراً على الناس من خلال ما علّمهم الله من علمه، وهذا يؤدي بالناس كي يتزوّدوا بعلامات توحيد الله من أولي العلم لأنهم يمتلكون الحجج، وأسباب الشرح والتفسير والتأويل .

لننظر كيف يصف الله جل وعلا أهل العلم في القرآن الحكيم :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ الحج٥٤

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾القصص٨٠

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾العنكبوت٤٩

﴿وَيَـرَى الَّـذِينَ أُوتُـوا الْعِلْـمَ الَّـذِي أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِـن رَّبِّـكَ هُـوَ الْحَـقَّ وَيَهْـدِي إِلَـى صِـرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيدِ﴾سبأ٦

يتحوّل العالم الذي يعلّم الناس الخير إلى رسول غير مباشر من رسل الله، كونه قد ورث عـن الرسـول رسـالته، وتولى نشرها في الناس من بعده، وبعد موت الرسل، يبقى كتاب الله في عهدة أولـي العلـم، ولـذلك ثمـة حـديث بهذا الصدد يقول بأن الله يبعث على رأس كل قرن مَن يُجدد لهذه الأمة أمر دينها.

يقول الله:

﴿لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ﴾النساء١٦٢

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ النحل٢٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾الإسراء١٠٧

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ فاطر٢٨

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾المجادلة١١

لقد بوأهم الله بفضله منزلة المرجعية البشرية برمتها ، فطلـب مـن النـاس الـذين لايعلمـون أن يسـألوهم كـي يعلّموهم مما آتاهم الله تعالى من العلم ، وقد أورد الله أمر السؤال مكرراً في سورتين بقولـه : ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾النحل٤٣، وكذلك : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء٧

هنا تقع على عاتق أولي العلم مسؤولية إبلاغ الناس بما آتاهم الله من علمه، وبما حمّلهم مسؤولية نشـر رسـالته من بعد الرسل، وعندما يقول الله لسواد الناس: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ نفهم من هـذا بأنـه أمرٌ على أهل الذكر كي يستجيبوا لأسئلة السائلين، ويعلّموهم الحق من ربهم، وهذه هي مهمة الأنبياء والرسـل، لكن بوفاتهم، تتحوّل هذه المهمة إلى عهدة أولي العلم، ومسؤولية أولي العلم تتقدم مسؤولية أولي الأمـر، ذلـك أن ولي الأمر لايعلم ما يعلم ولي العلم ، وتقع على عاتق ولي العلم مسـؤولية تعلـيم ولـي الأمـر، فـإن كمنـت مسؤولية أولي الأمر في قيادة الناس مادياً، فتكمن مسؤولية أولي العلم في قيادة الناس روحياً" ولذلك فإن أفضـل قادة الناس هم الذين يجمعون بين السياسة والعلم، والقائد الذي لايقرأ ولايتعلم، هو قائد يُخاف على شعبه منـه، كونه يكون مائلاً إلى الطيش وإلى اتخاذ قرارات متسرّعة غير حكيمة.

إن الذي آتاه الله علماً، وفضّل عليه بأن جعله قائداً للفكر، فإن هذا الإنسان تقع عليه مسؤولية إيصال وبيـان الحق إلى عامة الناس، لأن الله جعله مرجعاً لسواد الناس، ووكّله كي يتحـدّث عنـه ويوقـع عنـه في الأرض علـى الأحكام الإلهية" ولعلنا هنا نستنبط مدى ثقل المسؤولية العلمية والفكرية لسائر أهل العلم، ولذلك كان عمر بـن الخطاب يقول: "والله لو أن شاة عثرت في العراق، لخفت أن يسألني الله لِمَ لم تمهّـد لهـا الطريـق يـاعمر". وقيـادة عمر ليست قيادة سياسية فحسب، بل هي قيادة فكرية استنارية أكثر من كونها قيادة سياسـية، لأنـه رجـل ديـن

قبل أن يكون رجل سياسة، ورجل دين يعني رجل علم وتقوى وفكروداعياً الناس إلى القراءة، فهي إذن مسؤولية فكرية، اقترنت بالمسؤولية السياسية، يخشى أن يسأله الله عز وجل عنها.

ونظراً لهذه المنزلة فقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم شأن علم " ورثة الأنبياء" حتى جعله يرجح على دماء الشهداء بقوله :" مداد العلماء يرجح على دماء الشهداء يوم القيامة "

ويقول:" إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلمي الناس الخير ".

إن قادة العلم، هم قادة الفكر البشري، وهم قادة الروح البشرية، إنهم قادة العالم، بطريقة غير مباشرة، لأنهم هم الذين يبنون الإنسان، ويشكّلونه عقلياً ومعرفياً وعقائدياً وروحياً، لذلك نرى أن بعض أهل الحكم والإدارة، يسعون إلى أهل العلم كي يستأنسوا وينتفعوا، ويغتنوا بما آتاهم الله من غنى العلم .

من هذه المنزلة التي بوأه الله بها، يسعى رجل العلم جاهداً في تحصيل مزيد من العلم كي يطوّر نفسه ويبني أواصر متينة بينه وبين المتلقين لعلمه، وكلما اتسعت مطالعاته، واتسعت دائرة علاقاته وولوجه إلى قاع المجتمع، استطاع أن يترك أثراً، ويمتلك مقدرة حقيقية على تغيير الناس نحو الأفضل، وتطويرهم.

إذن لقد:﴿**شهد الله** ﴾يامحمد :﴿**أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم**﴾، ﴿**وأولو العلم**﴾جعلهم الله شهوداً معه ومع ملائكته، وعندما نقول:﴿ **وأولو العلم**﴾فهذا يعني بأننا نقول الأنبياء والرسل أيضاً، لأنهم أتوا بعلمهم مما حمل الأنبياء والرسل من علم الله إلى الناس، وليس من مصدر آخر، فلو قال: أولو النبوة، أو أولو الرسل، أو أولو العزم من الأنبياء، إضافة إلى الله وملائكته، بدلاً عن أولي العلم، فَمَن الذي يقوم بنشر الدين وفقه الناس بعد موت الأنبياء والرسل، ذلك أن لحضورهم في الحياة مرحلة قدّرها الله، وختمهم بخاتَمهم، ولن يكون هناك نبي أو رسول جديد يحمل رسالة جديدة من الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم، الأميّ الهاشمي العربي المكّيّ، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء ، لكن الله حي لايموت، والملائكة أحياء، وكذلك أهل العلم – الذين هم ليسوا أشخاصاً بعينهم في مرحلة زمنية – لايموتون بعلمهم ، لأن لكل مرحلة زمنية علماؤها الأحياء الذين ينشرون رسالات الله التي أتى بها رسله، وهم يقدّمون شهاداتهم للناس بـ :﴿**أنه لا إله إلا هو**﴾، فإن خلت المساجد من الأئمة، والخطباء، فمَن الذي يدعو الناس إلى بيوت الله، وقد مات الأنبياء والرسل، فانظر إلى أعداد المساجد، وكل إمام وخطيب يعنيه ويهمه أن يتكاثر أعداد المصلين الذين يرتادون مسجده، وتُسرّ نفسه بحمد الله، كلما رأى أعداد مصلي مسجده في تكاثر وزيادة، فيقوم بتوسعة المسجد، فإن قل عددهم، راجع نفسه، وانخرط في مجالس ومناسبات الناس، كي يجس نبض الواقع الاجتماعي، ويتزوّد بالحجة والبرهان ،لأنه يشعر بأنه مقصّر في القيام بمهمته ، أو أنه يتنحى جانباً تاركاً المهمة لِمَن هو أكثر جدارة وأكثر بلاغة، وأكثر تأثيراً في غالبية شرائح الناس في شتى مستوياتهم .

يقول الكلبي: لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت فقالا له: أنت محمد قال: نعم قالا: وأنت أحمد قال: نعم قالا إنا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلاني فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى على نبيه ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولوا العِلمِ**﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله.

ويقول غالب القطان: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه. فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام**﴾ . قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة، وإن الدين عند الله الإسلام – قالها مرارا – فغدوت إليه وودعته ثم قلت: إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدثني به. قال: والله لا حدثتك به سنة. قال: فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم، فلما مضت السنة قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة. قال: حدثني أبو وائل، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفى أدخلوا عبدي الجنة " .

﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ قائماً بالعدل في عباده: ﴿**لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾١٨بيده العز،كل العز،لاشيء يأتي منه دون أن تكون فيه حكمته.

﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّـهِ الْإِسْلَامُ**﴾ دين الله الواحد منذ بدء الخليقة، وهو الإسلام، فمَن آمن به فقد سَلِم، ومَن لم يؤمن به لم يَسلم:﴿**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ فغدوا يبتغون درجات الدنيا بماأوتوا من العلم، وهذا ما جعلهم يتفرّقون فيه، سعياً خلف الدنيا ، والبغي هو الباطل، فهم بهذا البغي على باطل مما دار في حديثهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن خلق عيسى، وما أوردناه في مستهل السورة.

﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّـهِ فَإِنَّ اللَّـهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾١٩ تحذير من الله بأن مَن يكفر ببيّناته، فإنما يجعل من نفسه عرضة لحساب من الله.

﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ**﴾يامحمّد بالحجج والذرائع:﴿ **فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّـهِ**﴾بقيتُ أنا:﴿ **وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾نتبع دين الله دون أن نتّبعكم في كفركم:﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا**﴾نجوا من براثن الكفر﴿ **وَّإِن تَوَلَّوْا**﴾عاندوا ولبثوا على كفرهم:﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ**﴾أن تبلغهم ببيّنات ما آتيناك ﴿**وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾٢٠

يستكمل الله حديثه لنبيّه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ﴾التي بلّغتها لهم، ثم جحدوها عن علـم وإصـرار :﴿وَيَقْتُلُـونَ النَّبِـيِّينَ بِغَيْـرِ حَقٍّ﴾يروي الله لنبيّه أن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء الذين يدعونهم إلى سبيل الله:﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَـأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾أهل الصلاح من الناس الذين آمنوا بما جـاء بـه الأنبيـاء، ولبثـوا ينشـرون الحـق بعـد مقتـل الأنبياء، كذلك هؤلاء تعرّضوا للقتل على أيدي بني إسرائيل،

لأنهم رأوا فيهم الوجه الآخر للأنبياء:﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾٢١ يقـول الـنبي :" يـا أبـا عبيـدة قتلـت بنـو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا في أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة واثنا عشر رجلا من عُبَّاد بني إسرائيل أمـروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوهم جميعا في آخر النهار في ذلـك اليـوم فهـم الـذين ذكـرهم الله في كتابه وأنـزل الآية فيهم".

﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ حبطتْ ، بمعنى خذلت، وبطلت، وهبطت بهم أعمالهم حتى لوكانت في الظاهر صالحة، بيد أن أساسها باطل، كونهم يقدّمون هذه الأعمال وهم على أرضية باطلة، فـلا تنفعهم في شيء، ترى الرجل يعمل عملاً، ثم عندما لايرى نتيجة لعمله يقول بأنه أُصيب بالإحباط، وهـذا شـيء من الانهيار، فهذا العمل منهار وانهار بصاحبه، كذلك فهذه الأعمال لاتنفعهم في الدنيا ، فإن أعطى مالاً لفقـير، أدرك الفقير أنه أعطى هذا المال لمصلحة وغاية دنيوية ما، وكذلك سـائر الأعمـال الـتي هـي صـالحة في ظاهرهـا ونافعة، بيد أنها باطلة في مضمونها، لأنها ليست خالصة لوجه الله، فلا تنفع فاعلها بشيء سـواء في الـدنيا، أو في الآخرة.﴿وَمَا لَهُم مِّنَّاصِرِينَ﴾٢٢.فلا أحد يُناصر الكافر في كفره، وحتى إن آزره ووالاه، فهو يـؤازره ويواليـه على الكفر، ويدفع به إلى بؤس المصير، فتحقيق الهدف من الكفر ليس نصراً، في حين أن تحقيق الهدف من الإيمـان هو نصر مؤزَر، ولذلك ترى أن الذين يمضون على الباطل بصفة عامـة، تخلـو حيـاتهم مـن الصـداقات الحميمـة، والعلاقات الاجتماعية القويمة، والروابط الانسانية الطيبـة، وهـذا مـن أقسـى ألـوان الحرمـان مـن دفء أواصـر الانتماء إلى العائلة البشرية، فيكتوون بنار اللا انتماء، ليس إلى العائلة الإنسانية، فحسب، بل حتـى إلى عـائلاتهم الصغيرة، ولذلك ترى حالات الفشل العاطفي، والأسروي، والأبوي، والاجتماعي، متفشية فـيهم، ونظـير ذلـك ترى أن الذين يمضون على الحق، تغتني حياتهم بالصداقات الحقيقية، وتكـون حافلـة بسـمو العلاقـات الإنسـانية النبيلة، فيستمتعون بدفء سكينة الانتماء إلى العائلة الإنسانية، لذلك تتوّجهم المجتمعات أبطالاً ، وتذكر مـآثرهم التي نفعوا بها الناس، وسننهم التي تركوها في الناس، فهؤلاء أعزّهم الله في الدنيا، وأعزّهم في الآخرة.

يخبر الله نبيّه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾وهذا شيء يشير إلى العجب في شأن هؤلاء، فإن كان لك حق عند شخص، ثم أنكـره عليك، فطلب منك أن تأتي بالشاهدين الذين شهدا حقك هذا، وعندما تأتي بهما ويشـهدا لـك بحقـك، ورغـم ذلك يبقى ذاك الشخص ينكر، فتقول : ألم تريا كيف ينكر الحق.يقول الله:﴿ أَلَمْ تَرَ﴾يامحمّد:﴿ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّـهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُـونَ﴾٢٣عمّـا في هـذا الكتاب من البيان الحق.

يقول ابن عباس: هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله. فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني على ملة إبراهيم ". فقالا: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " فهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم " . فأبيا عليه فنزلت الآية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾يعنون أربعين يوماً التي عبدوا فيها العجل، ثم بعد ذلك يخرجون منها:﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾٢٤يفترون على الله الكذب وهم يقولون:﴿ نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾المائدة ١٨

﴿فَكَيْفَ﴾باستفهام وتعجب بالنسبة إليهم، وتأكيد بأن كل إنسان يلقى نتاج عمله:﴿ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾يوم الجزاء:﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾٢٥

بعد أن بيّن الله تعالى لرسوله:﴿أَلَمْ تَرَ﴾ثم بيّن له العاقبة في:﴿فَكَيْفَ﴾يقول له:

﴿قُلِ ﴾ يامحمّد :﴿اللَّـهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾٢٦

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾٢٧وهذا دعاء يحقق الطمأنينة والتوازن في النفس لقاء ما يقولونه من افتراء على الله.

إن المؤمن، يعقد آمال رزقه على الله، ولايعقدها على دونه، فهو يسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب، وطبيعي أنه لايأتي ملك من السماء فيعطيه رزقاً يداً بيد، بل أن الله تعالى يجعل له أسباباً لبلوغ الرزق إليه، وإن أمسك الله عنه الرزق، فليس بوسع أحد أن يعطيه شيئاً، لأن الله يسد عنه أسباب بلوغ الرزق.

إن السعي إلى أبواب العمل معزّة للإنسان، والسعي إلى أبواب السؤال مذلّة له، فالذي يسعى إلى أسباب الرزق، إنما يطلب رزقه من الله، والذي يسعى إلى أبواب السؤال، إنما يطلب رزقه من العباد. واعلم أن الرزق الذي يأتي من رب العباد، هو رزق مبارك مهما كان قليلاً، والرزق الذي يأتي من العباد بالسؤال يكون منزوع البركة مهما كان كثيراً .

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾أولياء، من الولاية، فلا يتخذ المؤمن كافراً كولي له، حتى لايصبح الكافر ولياً للمؤمن، فلايجوز لك أن توليه أمرك، أو أن تكون موالياً له لأنه على كفر، وأنت على إيمان، والإيمان لايتبع الكفر، لأنه في أفضل أحواله، سيغدو مثله، في حين أن الكفر يتبع الإيمان، لأنه في أفضل أحواله، سيغدو مثله، فأن توالي شخصاً أي أن تجعله قدوة لك، وأن توليه أمرك، يعني أنك خولته كي يدير لك شأنك، أو أوليته مشورتك، فتعمل بشوره، فالولي هو المرجع، وهو المخوَل، تقول: هذا ولي أمري، وهذا ولي علمي، فانظر إلى هذه الآيات:

﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾الأنفال٧٥

﴿ولَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾النور٢٢

﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾النمل٣٣

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾الأحقاف ٣٥

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾النساء ٥٩

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾النساء ٨٣

فالكافر لايجوز له أن يحكم المؤمن، لأن الشر لايجوز له أن يحكم الخير، أوالظلم أن يحكم العدل، فالكافر عندما يحكم المؤمن، أول ما يفعله هو أن ينال من إيمانه، ويجعله على ملته، فالمؤمن مادام على إيمانه، فهو يُناقضه في عقيدته، ومنهجه الحياتي، وبالتالي لايلتقيا بأي حال من الأحوال، والمؤمن هنا رعية، والكافر راع، والراعي يملك أن يقود الرعية إلى حيث يشاء، وولي الأمر يمتلك صلاحية إصدار الأمر، أو الاعتقال، أو مصادرة الممتلكات ، وقد يستغل صلاحياته هذه بحق المؤمنين حتى يُخضعهم لملّته ومذهبه في الحياة، ولذلك، وقبل أن تحل كل هذه العواقب على المؤمنين، فإن الله ينهاهم عن ذلك.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحجاج بن عمرو بن أبي الحقيق وقيس بن زيد يظنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود لا يفتنونكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة.

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما:" نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم".

بعد أن يبيّن الله ذلك لرسوله، يُخبره حتى يُعلم المؤمنين، قل لهم يامحمد وأنت حامل رسالتي إليهم:﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ**﴾يتخذ الكافر ولياً له دون المؤمنين:﴿ **فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾ندخل هنا باب التقية، وهي حالة مستثناة، استثناها الله بـ﴿**إِلَّا**﴾ وهي رحمة من الله بالمؤمنين، فيمكن للإنسان أن يقول شيئاً بلسانه حتى يتقي شر طاغية يمكن له أن يسحقه ويسحق عائلته في لحظات، فلايريد الله أن تودي بنفسك أو بعائلتك إلى التهلكة، حينها يمكن لك أن توالية مكرهاً بلسانك، وتنكره في قلبك، حتى ترى باب نجاة منه. تقول : قلتُ هذا كي أتقي شرّه، حتى ترى أن شخصاً مظلوماً في السجن يعترف بجناية لم يرتكبها كي يكف الجلاّد الظالم عن ضربه بعنف، وتعذيبه بأشدّ ألوان العذاب، لكن التقية لاتجوز عندما تتسبب في إلحاق الأذى بشخص آخر، أو في النيل من أعراض المؤمنين، فهي تكون حينما يدفع المؤمن بها الشرّ، أو القتل عن نفسه من جبروت ظالم، ويشترط في ذلك أن يكون المؤمن ضعيفاً، والكافر قوياً، ولايجوز عندما يكون المؤمن في موضع قوة، وأرى

أننا يمكن أن نفرّع التقية إلى سائر الأمور الحياتية بشرط الالتزام بقواعدها، لأن الجبن لايدخل باب التقية، وكذلك البخل، والوشاية، والنفاق.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّـهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّـهِ الْمَصِيرُ﴾ ٢٨ ﴿ قُلْ﴾ لهم يا محمّد:﴿ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّـهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٢٩

القدرة المقترنة بالقوة التي هي قوة تناصر الضعيف المظلوم الذي لاحول له ولا قوة إلا بربه، فيصبح قوياً بقوة الله، ومن جانب آخر، فالتحذير للقوي الجائر الباطش، وتذكيره بأن مصيره إلى الله القادر على كل شيء، وكل قوة تخور أمامه، وكذلك فإن الله قادر أن يسلط عليه بجوره في الدنيا مَن هو أكثر جوراً وبطشاً منه، فالحذر هو تنبيه كي يرتدع الظالم الجائر عن ظلمه، وألاّ يغتر بقوته لأن مصيره إلى الله:﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وقبل أن يرى فاعل السوء جزاء عمله، يكرر الله قوله:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّـهُ نَفْسَهُ﴾ وهذا من رأفة الله :﴿وَاللَّـهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ٣٠ ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد:﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٣١ وهذه بشارة بأن الله يحب مَن يحبّه ويتّبع سبيله. يُروى أنه صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال: يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة إبراهيم، فقالت قريش: إنما نعبد هذه حباً لله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية، ويروى أن النصارى قالوا: إنما نعظم المسيح حباً لله، فنزلت هذه الآية لتبيّن بأن الذي يحب الله، يتبعه من خلال ما أتى به رسوله:﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّـهَ وَالرَّسُولَ﴾ الذي يحمل رسالة الله إليكم، فالذي يتولى عن رسول الله، يتولى عن الله، وليس للمرء أن يفصل بين الله ورسوله، فطاعة رسول الله لاتكون لشخصه، أو لأمر أتى به من عنده، بل هي طاعة لله لِما حمل هذا الرسول من بيان من عند الله، وهي طاعة لمرسل هذا الرسول، فإن لم يطع الإنسان الله ورسوله، فهذا يعني بأنه سيطيع الشيطان وجنده، ويصبح في زمرة الشيطان وأتباعه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن حب الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله:﴿ فَإِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ٣٢ الذين يتولون عنه ولايحبونه، فتعلم هنا بأن الله يحب، وكذلك لايحب، يحب الذين يحبونه، ولايحب الذين يتولون عنه.

الباب التاســع
عالم آل عمران

ننتقل الآن من خلال حديث الله جل ثناؤه لرسوله إلى مرحلة أخرى، هي مرحلة إدخال رسوله إلى عالم آل عمران، وتعريفه على عمران وذريته، وتلك الوقائع التي جرت في تلك الحقبة النبوية الانتقالية الكبرى في حياة البشر.

آل، المصدر الذي يؤول إليه مُن تفرّع منه، إنه المؤسس الأول الذي ينتمون إليه، ولذلك يُكنّون باسمه، ويُعرفون به، فيمسي بمثابة هوية وتأريخ بالنسبة إليهم خاصة إذا كان شخصاً هاماً صنع أحداثاً تحولية في حياته.

عمران، هو هذا الـ آل المؤسس في هذه السورة، وهو رجل من عامة الناس من بني إسرائيل، اسمه عمران بن ماتان، ويُقال عنه بالعبرية " عمرام"، وقد كان رجلاً صالحاً، يقيم حدود الله حتى أن بيته غدا يُعرف ببيت الصلاح والإيمان.

إذن، كان عمران رجلاً مؤمناً من عامة الناس، يقوم بنشر الصلاح والعدل والحق في الناس، وقد تزوّج هذا الرجل من امرأة اسمها "حنّة " لكنها رغم مرور السنوات لم تنجب، وتبيّن بأنها عاقر، لكن بعد ثلاثين سنة من زواجها، ذات يوم دعت ربها دون أن تُصاب باليأس أن يهب لها ولداً، نذرت أن تجعله وقفاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس، وقد استجاب الله لدعائها، فوهب لها ابنة بدلاً عن الولد، والخيرة فيما يختار الله، فهذه الابنة سوف تقدم للإنسانية أفضل مما يقدّم الولد الذي سألته السيدة "حنّة بنت فاقوذا" من ربها، وسوف يتحوّل كلامها مع ربها إلى قرآن في الناس بكونها أم هذه الابنة، وسوف تدخل مع زوجها كتاب الله، ويحظى أبوها بأن تحمل سورة من القرآن اسمه، وسوف يروي الله روايتها لخاتم أنبيائه ورسله في كتابه المبين.

هنا نرى كيف أن الزوجين معاً يصنعان تاريخهما، وتاريخ أبنائهما، فالمرأة هي التي جعلت آلاً لعمران، وهي التي سألت ربها الانجاب، وما ذلك إلاّ لأن المرأة هي شريكة حقيقية للرجل، وهي القدم الثانية التي يقف عليها، ويمشي بها جسد الأسرة.

يقول الله لنبيّه: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ يوسف٣

عندما لايعلم الإنسان، فإنه يكون في غفلة، وعندما يعلم، يستيقظ من الغفلة، فالله يقظ نبيه من الغفلة، وهو لايقظه بهدف إيقاظه فحسب، بل ليقظ الناس جميعاً بما أيقظه الله. يقول له الله بعد أن يقظه:﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾الأعراف١٧٦ ليتحوّل النبي صلى الله من متلق لأحسن القصص إلى قاص لها، كما تحوّل جبريل من متلق إلى قاص لها للنبي، فالمصدر هو الله عز وجل، والمراد من القَص، هم الناس، وهذا ما يأمر به الله رسوله أن يقوم به كي يوصل هذه القصص إلى الناس، حتى تسري فيهم.

يستهل الله جل جلاله قوله للنبي وهو يعرّفه على عمران وآله: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى**﴾اختار وانتقى واستخلص﴿**آدَمَ** ﴾الذي هو مرجع وأصل وأساس كل إنسان على الإطلاق، وهذا يأتي على النبي عيسى أيضاً

لأنه ينتمي إلى آدم من خلال أمه التي هي ابنة آدم، لقد اصطفاه الله بعزته وجلاله لهذه المنزلة السامية حتى يتسلسل من نسله كل هؤلاء الأنبياء والرسل وأهل الصلاح والعفاف والعذوبة على مدار التاريخ البشري، لأن الأصل الفاسد، ينتج فساداً، ولاينتج صلاحاً، لكن الأصل الصالح ينتج صلاحاً، وكذلك ينتج فساداً، فتكون الحجة على أهل الفساد لأنهمانحدروا من أصل صالح، وبذلك فإن الإنسان كما في الأثر: "يولد على الفطرة" وعندما يكبر ويرى نفسه في واقع فاسد لأب فاسد، عليه أن يخرج عن فساد واقعه إلى واقع صالح، حتى يعود إلى أصله الصالح، ولايكمن أصله في أبيه، بل في الرجل الأول الذي تسلسل منه أبوه، فهذا الرجل هو الذي خرج عن أبيه الصالح، ولايجوز له أن يفرض الفساد على أبنائه، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم:"لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق". لذلك سوف تكون عليه الحجة إذا استمرّ في الكفر بعد أن تأتيه بيّنات الله، فهو مدعو للأوبة إلى أصله، فإن أذنبت، سوف تذنب كما أذنب أصلك آدم، وإن تبت، سوف تقتدي بأصلك آدم وتتوب وتسأل ربك المغفرة، وإن أذنبت، ولبثت مصراً على ذنبك ولاتقتدي بأصلك آدم، ولاتطلب المغفرة من ربك، وكل يوم تزداد ذنوبا وتترسخ في المعاصي، وتعيث الفساد في ذاتك، وفي الناس، فإن الله يحذرك من مغبة ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾محمد٣٤ فاعلم أن ذنوبك مهما اتسعت، فهي لاتبلغ مبلغ سعة رحمة الله، بل رب ذنب عظيم قاد مذنباً إلى ربه بقوة إيمانية نادراً ما يحظى بها أناس يتبوؤون بدرجات متقدمة عند ربهم، فعلى قدر تلك الذنوب العظيمة التي كانوا فيها، لجأوا إلى ربهم نادمين مستغفرين، فبث الله إلى قلوبهم نور الإيمان، لتتحوّل ظلمات الشر في قلوبهم، إلى أنوار الإيمان، فحظوا بتلك المرتبة الإيمانية الاستثنائية، فقط لأنهم لم يقنطوا من رحمة الله رغم كل تلك الذنوب العظيمة التي كانوا فيها، وعلى ذلك فقد تحولوا إلى أكثر عباد الله صلاحاً، ودعوة إلى الحق.

إن الله برحمته الواسعة، يبقى يغفر الذنب لك ما دمت تتوب لأن توبتك دليل إيمانك، ودليل عدم قنوطك من رحمة ربك، وعدم استسلامك لليأس، يبقى الله يغفر لك ما دمتَ تسأله التوبة، إلى درجة يُصاب فيها الشيطان باليأس من تكراره في إغوائك وتكرار مغفرة الله لك، فيعمل على نيل مواظبتك على التوبة، ويوسوس لك بأن يُعظّم ذنوبك في نفسك، وأن الله لايغفرها لك مهما استغفرته، فإن نال من مواظبتك على التوبة واغتنم منك ببث اليأس فيك من مغفرة الله كنتَ له جنداً من جنوده، وإن لم يفلح في بث اليأس فيك من تكرار التوبة رغم سعيه الحثيث، ووسوسته المركّزة عليك، عندئذ يدعك وشأنك يائساً منك، لأنه يعلم بأن الله سوف يغفر لك إن تبت وسألته المغفرة.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾الزمر٥٣

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾البقرة١٨٦ :﴿وَنُوحًا ﴾الأب الثاني لهم، كونه بقي مع عدد قليل من المؤمنين بعد الطوفان، وتسلسلت

البشرية مرة ثانية من ولدَيه سام وحام بينما بقي ولده الثالث في الطوفان، أمّا مّن نجا مع نوح ، فيّقال بأن ذرياتهم فنت مع السنوات، ولم يستمر من النسل الإنساني سوى ذرية نوح من ابنَيه سام وحام، فإذن اصطفى آدم ليكون أباً للناس، ثم اصطفى نوحاً ليكون أباً ثانياً لهم، وقد ذكر هذين الشخصين منفردَين دون آل، لأن الاصطفاء هنا يقتصر على شخصيهما، فالصفوة في الأصل البشري استمرّت حتى بعد الطوفان من خلال نوح الذي استوى بسفينته ناجياً على الجودي، ولأنه لم يقم طوفان مرة أخرى، واستمرّ الأصل المصفى في الناس، فقد تحوّل الاصطفاء إلى ذريات بعد ذلك، فيقول الله :﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾فقد انتقلت الصفوة إلى آلهمن الأنبياء والرسل، وهذا النسب لايكون في نسب الدم فقط، بل في نسب النبوة أيضاً، فهو عليه السلام أبو الأنبياء ويصفه الله بالإسلام، وليس باليهودية، أو النصرانية، أو غير ذلك، يقول النبي: " وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَد سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ" فلو كان النسب لإبراهيم بالدم، أو بالانتماء القومي، لاقتصرت الصفوة في أبناء قومه دون غيرهم، وبناء على ذلك فإن الأنبياء يؤولون إليه، ويصبحون من آله :﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾وهو رجل من عامة الناس في بني إسرائيل، اختاره الله تبارك وتعالى ليُصبح علامة فارقة من العلامات الإنسانية رغم أنه لم يكن كثير النسل، ولم يتفرّع منه سوى ابنة واحدة، وقد أنجبت له حفيداً واحداً، وهما سيكونان بمثابة علامتين فارقتين انعطافيتين في مسار التاريخ البشري، ذلك أن ابنته الوحيدة لم تنجب سوى ولداً واحداً، وهذا الولد لم يقترن بزوجة، لكن ما ميّز عمران هو أن الله تبارك وتعالى قد اصطفى ابنته الوحيدة هذه على نساء العالمين، وجعل حفيده الوحيد هذا نبياً ورسولاً من أولي العزم من الأنبياء والرسل، وهو حفيد مميّز في ولادته، وفي نشوئه، وفي ما آتاه الله من ملكات خارقة عن سائر الناس دون استثناء، فما أذن الله به لهذا الحفيد، لم يأذن به لمخلوق قط من النسل البشري.

لقد اصطفى الله هؤلاء:﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾٣٣

إنهم الرجال الأربعة الذين أحدثوا انعطافات كبرى في مسيرة التاريخ الإنساني، رغم أن عمران لم يكن نبياً، لكنه جدّ لنبي من أولي العزم، وأب لفتاة عذراء اصطفاها الله على نساء العالمين، وهو كذلك رجل صالح مؤمن:

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾سلالة تسلسل بعضها من بعض﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾٣٤

الآن سوف نلج إلى قلب هذه العائلة الصغيرة، حيث يروي الله لنبيه كيف بدأت هذه المسيرة، وهذا يهم النبي كثيراً أن يلم بتفاصيله، لأن رسالته هي التالية بعد رسالة حفيد عمران، وأن أعداد المسيحيين هائلة، وهم الذين يحكمون الأرض على الأغلب، وأنه سوف يكون في مواجهة هؤلاء، وعليه أن يقنعهم بالبرهان، والسنوات التي تفصله عن نزول الإنجيل ليست طويلة كثيراً، وهي نحو ستمائة سنة. وأن الخلاف بينه وبينهم لن يكون سهلاً، بل سيكون على صلب الرسالة التي أتى بها،بما يمس الإيمان بوحدانية الله الذي لاشريك له.

لننظر كيف أن الله تعالى يُطلعه على نشأة هذه العائلة:﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ ذات يوم سألت السيدة حنّة بنت فاقوذا ربها قائلة:﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أن يكون ما في بطنها في خدمة الله متفرّغاً

في الكنيسة :﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٣٥ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّـهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يُحتمل أن يكون هذا اعتذاراً منها لله لأنها سبق أن قالت ﴿مُحَرَّرًا﴾ فذكّرت الذي في بطنها، فتقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾٣٦ فقد قبل الله تعالى دعاءها بقوله:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾تقبّل الله مريم ابنة حنة ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه " ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وعنه صلى الله عليه وسلم « كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾فقد تولى الله تعالى العناية بها، فكانت تنبت كل يوم ما ينبت المولود الطبيعي سنة:﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾لكن لماذا كفلها زكريا، ثم لماذا تولت أمها تسميتها، ومعروف في ذاك العهد أن الأب يتولى تسمية أبنائه وبناته، فـ عمران لاظهور له في هذه الآيات التي تحمل أحداثاً ساخنة في عائلته تخصه شخصياً، ولذلك يُحتمل أن يكون قد توفى هذا الرجل سواء عند حمل زوجته، أو عند ولادة ابنته مريم، وهذا ما يخوّل الأم أن تتولى تسمية مولودها، ثم يبرر أن يكفلها رجل آخر، والواقع أن هذا الرجل الآخر ليس غريباً، فهو على ما يظهر عديل عمران، وهو النبي زكريا بن آذن بن مسلم بن صدوق، من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام، وزوج السيدة " إيشاع" وهي أخت حنة، وخالة مريم، وبالتالي فإن النبي يحيى الذي سيهبه الله فيما بعد للنبي زكريا، كما سنرى بعد آيتين، سيكون ابن خالة النبي عيسى الذي ستنجبه مريم.

ومما يُروى أن حنّة عندما ولدت ابنتها مريم، لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار، أبناء هارون وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها، عندي خالتها، فقالت له الأحبار: لا نفعل ذلك، فإنها لو تركت لأحق الناس لها لتركت لأمها التي ولدتها، لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلا إلى نهر جار، قال السدي: هو نهر الأردن فألقوا أقلامهم في الماء على أن من ثبت قلمه في الماء فصعد فهو أولى بها.

وقيل: كان على كل قلم اسم واحد منهم.

وقيل : كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم في الماء فارتز قلم زكريا فارتفع فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في النهر، قاله محمد بن إسحاق وجماعة.

هذا يعني أنها غدت في كفالة خالتها إيشاع، وكما يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" الخَالَةُ بِمَنزِلَةِ الأمِّ ".

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾المحراب، الغرفة الشريفة العالية ، وإذا عدنا إلى أن الله عز وجل أنبتها نباتاً حسناً، سندرك بأن مريم تجاوزت الرضاعة، فلا ذكر لامرأة رضعتها وهي في بيت خالتها إيشاع.

لبث زكريا عليه السلام في كفالتها حتى أصبحت شابة، حينها بنى لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطه لا يُصعد إليه إلا بسلم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، لكنه بدأ يلحظ عليها أمراً غريباً، ولعله مريباً أيضاً، فهو عليه السلام:﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، وهو ليس رزقاً طبيعياً، بل هو رزق كثير ملفت للنظر وفي غير أوانه، مثل أن يرى فاكهة الصيف عندها في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فلا يملك نفسه من سؤالها دَهِشاً: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا﴾؟! أراد أن يعرف مصدر هذا الذي عندها، فمّن الذي يأتي به إليها، فتطمئنه:

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ﴾ولعل هذا يعني أن الله يرزقها بهذا الطعام من الجنة وليس مما تنبت أرض الدنيا، ثم تزيده طمأنينة بقولها:﴿ إِنَّ اللَّـهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾٣٧

لكن هناك رواية أخرى حول ذلك وهي أن زكريا تعرّض للفقر مع بقية بني إسرائيل في بعض السنوات التي حلّ فيها الفقر، فلم يعد قادراً على إعالة مريم، واضطر أن يبحث عن أحد كي يرعاها، يقول محمد بن إسحاق في ذلك :" أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها فخرج على بني إسرائيل فقال يا بني إسرائيل: تعلمون والله لقد كبرت سني وضعفتُ عن حمل مريم بنت عمران فأيكم يكفلها بعدي؟ قالوا: والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ما ترى، فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدا، فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل نجار من بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب، وكان ابن عم مريم فحملها، فعرفت مريم في وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له: يا يوسف أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا، فجعل يوسف يرزق بمكانها منه، فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها في الكنيسة أنماه الله، فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق، ليس بقدر ما يأتيها به يوسف".

في كلا الوجهين، لايختلف الأمر كثيراً، لأن زكريا يبقى على صلة معها، وهي تبقى في المحراب، لكن الذي يتولى أمرها هو ابن عمها يوسف النجار، لأن زكريا قد بلغ من العمر عتياً، في حين أن يوسف ما يزال شاباً وإضافة إلى ذلك، فهو قادر على حمايتها أكثر من شيخ عجوز، كما أنه ليس غريباً عليها، وهو يُعتبر مسؤولاً عنها، لأن ما يلحقها، إنما يلحقه أيضاً، فإذن تجيبه مريم في كلا الوجهين بأن هذا الرزق إنما: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ﴾الذي :﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وهذا إثبات بأن الله عندما يشاء، فإنه يعطي دون حساب، ودون حساب يعني أنه يعطي ما لم يكن المرء يحسب له حساباً، يعطي دون حدّ، فإن توقعتَ بأن مطلبك غير قابل للتحقق، فإنما تعبّر عن ضيق معرفتك بالله، وإن رأيت بأن الله قادر على كل شيء، ولاشيء خارج قدرته البتة، فإنك تعبّر عن قوة معرفتك بالله، فإن كنتَ في طبيعة، ثم نظرتَ إلى شخص يبعد عنك، رأيته صغير الحجم، لكن

الحقيقة، هو ليس كذلك، وبُعدك عنه يصوّر لك ذلك، ثم إن دنوت إليه رأيته يكبر مع خطوات الدنو إليه، فبعدك عن الله قد يعطيك تصوراً بأن ما تريد هو غير قابل للتحقق، لكنه في واقع الأمر هو قابل للتحقق، لأن مخيلتك تصوّر لك خياليته، وهذه مشكلتك، وليس من الصواب أن تقيس ذلك على الله أيضاً، فإن قسته في مخيالك على الله أيضاً، فهذا لايعني بأن ذلك صائب، ولهذا فإن الذنوب مهما اتسعت ومهما كبرت، فإن الله قادر على غفرانها لك، ويجعلك تدخل الجنة دون أن ترى الجحيم رغم كل تلك الذنوب، ثم لو أن طاعتك مهما اتسعت فإن الله قادر أن يُدخلك النار، ولايجعلك ترى الجنة، وإن كنت عقيماً، لايعني ذلك أن تعقد كل آمالك على ما يقوله لك الأطباء، وإن كنت فقيراً، لايعني ذلك أن الله غير قادر على إغنائك، وإن كنت ذليلاً في قومك، ذلك لايعني أن تستسلم، لأن الله قادر أن يجعلك عزيزاً ويُذل الذي كان عزيزاً، بل يجعلك عزيزاً عليه، وقد قد كان عزيزاً عليك.

انظر هنا إلى واقعة وقعت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن مسار هذه الآية:

قال الحافظ أبو يعلى:حدثنا سَهْل بن زنْجَلة، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا عبد الله ابن لَهِيعَة، عن محمد بن المُنكَدِر، عن جابر" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أيامًا لم يَطْعَمْ طعاما، حتى شَقّ ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا، فأتى فاطمة فقال:« يا بُنَيَّة، هَلْ عِنْدَكِ شَيْء آكُلُهُ، فَإِنِّي جَائِع؟» فقالت:لا والله بأبي أنتَ وأمّي. فلما خَرَج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته في جَفْنَةٍ لها، وقالت:والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي. وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حَسَنا أو حُسَينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت له:بأبي وأمي قد أتى الله بشيء فخَبَّأْتُه لك. قال: « هَلُمِّي يا بُنيَّة » قالت:فأتيته بالجفنة. فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا، فلما نظرَتْ إليها بُهِتتْ وعرفَتْ أنها بركة من الله، فحمدَت الله وصلّت على نَبِيِّهِ، وقدّمَتْه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه حمد الله وقال: « مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا يَا بُنَيَة"؟ فقالت يا أبت ﴿ **هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ فحمد الله وقال: « الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَكِ – يا بُنَيّة– شَبيهَةِ بسيدةِ نِساء بَنِي إسْرَائيلَ، فَإِنَّها كَانَتْ إذَا رَزَقَهَا اللهُ شَيْئًا فَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ: ﴿ **هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عَلِي ثم أكل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأكل علي، وفاطمة، وحسن، وحسين، وجميع أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم وأهل بيته جميعًا حتى شبعوا. قالت:وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا ».

فإذن، لم يدع زوج خالة مريم للشيطان أن يوسوس له، حتى يتكهن بما يمكن أن يبثه إليه الشيطان، بل صدّقها في قولها، لأنه مدرك بأن ﴿**اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ وأن الله إن أراد أمراً، فعله حتى لوكان خارقاً للعادة، وتجاوزاً على المألوف البشري، ومادام الأمر كذلك، فإنه أيضاً طلب من ربه أمراً خارقاً للعادة، وتجاوزاً للمألوف البشري، وهو أن يهبه ولداً رغم أنه بلغ من العمر عتياً، وامرأته عاقر، وإضافة إلى عقرها فهي في الثامنة

والتسعين من عمرها، و زكريا يوم بُشِّر بالولد ابن ثنتين وتسعين سنة، وقيل: ابن تسع وتسعين سنة. وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن عشرين ومائة سنة.

فتصديقه لِما رأى عند ابنة أخت زوجته أدى به إلى ذلك. يروي الله لنبيه تفاصيل ذلك قائلاً:﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**﴾عندذاك دعاني زكريا فـ :﴿**قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾٣٧ **فتصديقه لِما رأى عند ابنة أخت زوجته أدى به إلى ذلك. يروي الله لنبيه تفاصيل ذلك قائلاً:﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ عندذاك دعاني زكريا فـ :﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾** ٣٨

يخبر الله نبيه بأنه استجاب لدعاء زكريا، وأمر الملائكة أن تبشره باستجابة الله:﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى**﴾

فانظر ما لذي طلب من ربه، وما الذي فتح به عليه ربه لأنه أحسن الظن بمريم، وصدّقها في قولها، وهذا الظن الحسن قاده بالمقابل إلى ربه، فأجزل له ربه العطاء. هذا درس بليغ للإنسان كي يُرجّح كفة حُسن الظن، حتى لو رأى أموراً تبعث على الريبة، فإن كنت متكفلاً بابنة أخت زوجتك الشابة، وأغلقتَ عليها سبعة أبواب حفاظاً عليها، ثم عدت ووجدت عندها طعاماً، فما الذي سيخطر لك، ثم أنك بعد أيام تراها تقول لك بأنها حامل، فما الذي تعتقده، فعليك ألا تعتقد سوءاً حتى في قمة تلك الأمور المريبة التي تراها، ولعلنا نذكر ما وقع لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك حتى تدخل الله في الأمر وأنزل آية في تبرئتها، لكن ليس كل امرأة ينزل فيها قرآن مكتوب يحمله من أجلها نبي، فتلك آيات للناس في كل زمان ومكان، لكن ذلك لايعني أن الحق لايظهر، بل أنه يظهر في آيات بيّنات في الناس، وهي بمثابة قرآن مرئي، لأن الله، هو الله، وعباد الله، هم عباد الله، والمتغيّر فقط هو الزمن. فقد سأل الرجل ربه سؤالاً غير قابل للتحقق بأي شكل من الأشكال وفق المنظور الإنساني، بيد أنه قابل للتحقق بمشيئة الله، فقال:﴿**هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾ وهذا تصديق منه لِما أجابته به مريم ردّاً على سؤاله بقولها:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ فلم يستجب له بالذرية فقط، بل بالطيبة أيضاً، فقال:﴿**مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾**٣٩**، ولعل زكريا لم يكن يعني بـ ﴿**طَيِّبَةً**﴾ كل هذا الطيب، لكن الطيب عند الله، يفوق الطيب عند الإنسان، ولذلك، فإن معاني الكلمات العربية تكتنز بالمعاني التي لم تكن لها قبل أن يُشرّفها الله تبارك وتعالى بحمل رسالة القرآن، وهذا يجعل مجال التأويل فسيحاً أمام شارح القرآن، إذ لم يعد مُقيّداً بتلك المعاني للغة العربية قبل نزول القرآن ، بل أننا رأينا أن اللغة العربية ازدهرت بعد نزول القرآن، فأدى ذلك إلى إظهار أئمة في اللغة العربية، أتوا بمعاجم، وتصانيف جديدة مستوحية من المعاني الجديدة التي أتى بها القرآن الكريم، ثم لبث الباب مفتوحاً أمام المكتشفات اللغوية الجديدة في اللسان العربي.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾يقول متعجباً كما تعجب عندما رأى الطعام الذي في غير أوانه عند مريم، وإن كان التعجب هناك بسبب وجود الطعام في غير أوانه عند مريم، فإنه هنا بسبب أنه بلغ الكبر، وزوجته عاقر. وقد عبّر بذات الكلمة عن نفسه وهي ﴿ أَنَّى﴾

يُقال أن النبي زكريا عندما سمع من الملائكة ما سمع، جاءه الشيطان وقال له:" يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله إنما هو من الشيطان، ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يوحي إليك في سائر الأمور" لذلك أراد أن يدفع عن نفسه هذا التداخل، فسأل ربه:﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

إنه يُريد أم يتعرّف على كيفية تحقيق هذا الأمر، بعد أن تأكد بأنه سيتحقق، لأن الله أخبره به، فـ﴿قَالَ﴾أجابه الله:﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ٤٠ عندئذ ﴿ قَالَ﴾ زكريا:﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ الآية هي البيّنة التي يعرف من خلالها الموعد الذي ستصبح زوجته فيه حاملاً:﴿قَالَ﴾ أجابه الله:﴿آيَتُكَ﴾ يا زكريا:﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أن يمتنع عن الكلام مع الناس، ويكون متفرغاً لذكر الله ثلاثة أيام، وإن اضطر يجيب بلغة الاشارة، حتى يبقى كلامه خالصاً لله ولايشغله أحد عن ذكر الله في تلك الأيام الثلاثة التي هي بيّنته التي تنبئه بأن زوجته غدت حاملاً:﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ ٤١

الباب العاشـــر
ولادة المسيح

بعد ذلك نعود في سياق السورة إلى مريم لنرى مالذي سيستجدّ معها، وهي المحور حتى الآن، فقد تحقق سابقاً حضور لأم مريم "حنة" ثم لـ زكريا، ثم لـ مريم، وكل هذا دون أن يكون لـعمران أي حضور، أو أي موقف بدر منه، ولعل هذا يشير إلى موته كما أشرنا قبلاً.

الآن بتنا على مشارف المحور الرئيسي لهذه السورة، وفق سلسلة من الأحداث غير المألوفة، فقد رأينا كيف أن مريم بدأت تنمو بشكل متجاوز للمألوف، كيف يأتيها رزقها، ثم كيف تحمل زوجة زكريا، فتستمر السورة في ذكر هذه المعجزات التي يرويها الله لرسوله، وهي تتدرّج في أحجامها اللامألوفة، وهنا نبلغ مرحلة ما هو بمثابة اهتزاز لنمط الحياة البشرية، فكل شيء سيكون خارقاً للطبيعة البشرية، هذه الفتاة العذراء التي تقبلها :﴿ **رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا**﴾هيأها الله لتكون امرأة تحوّلية في المسار البشري، والله هنا يُطلع نبيه على ذلك بقوله:

﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾٤٢ فهذه تهيئة لها لتصبح أمام واقع جديد، سوف تعيشه يوماً بيوم، ولعل ذلك لايعني أن الملائكة قالوا لها قولاً من تلقائهم، وأن الله يُخبر محمداً بأنهم قالوا لها ذلك، بمعنى سرّبوا لها هذا الخبر، بل يعني أن الله جل ثناؤه، أرسلهم كي يُخبروا مريم قول الله لها:﴿ **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾

فقد غدت في هذه المرحلة امرأة استثنائية، جعلها الله صفوة نساء العالمين، وجعلها طاهرة، بحيث لاتصيبها جنابة، ولا يصيبها احتلام، ولايصيبها حيض، ولايقربها كل ما من شأنه ألا يكون طاهراً. إنها كتلة من الطهارة، وبذلك فإن طهارة الماء الطاهر لاتكون أعلى منها طهارة، بل لعلها إذا وضعت إصبعها في ماء غير طاهر، تطهر الماء بلمسة إصبعها، ثم أن الماء يمكن له أن يُصبح غير طاهر، أو ملوّثاً، بيد أن مريم لايملك اللاطهر أن يقربها، ولايصيبها التلوث بأي شكل من الأشكال، فهي إذاً تمتلك مقوّم أن يتطهر منها الماء الذي يتطهّر به الناس، وقد أنبتها الله نباتاً حسناً منذ أن كانت في بطن أمها، ومنذ اليوم الأول لولادتها، فقد نبتت كنبتة طاهرة وترعرعت على طعام الجنّة، يستأنف الملائكة إخبارها بقول الله بأنه يقول لها: ﴿**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾٤٣.

استجابت لربها، فغدت تُكثر من العبادة والقنوت، والقنوت إطالة القيام في الصلاة عند مجاهد ، و إدامة الطاعة عند قتادة، وإليه ذهب الراغب، و الإخلاص في العبادة عند سعيد بن جبير

قال مجاهد:كانت مريم، عليها السلام، تقوم حتى تتورم كعباها، وقال الأوزاعي: ركدت في محرابها راكعة وساجدة وقائمة، حتى نزل الماء الأصفر في قدميها، رضي الله عنها.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن يونس الكُدَيمي: حدثنا علي بن بحر بن بَرّي، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي ﴾ قال:سَجَدت حتى نزل الماء الأصفر في عينيها .

قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا عليها السلام.

﴿ذَلِكَ﴾ يستأنف الله حديثه لنبيه:﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا محمد :﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٤

تبدأ هنا المرحلة الإنعطافية الكبرى ليس بالنسبة لمريم فحسب، بل بالنسبة للجنس البشري، حيث يحدث لأول مرة أن تضع فتاة عذراء وليداً دون أن يكون له أب:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

بدأ الحدث الأكبر في هذه السورة يجلو، فكل ذلك كان يمهّد لهذا الحدث الكبير في التاريخ البشري، حيث يمهّد هذا لحضور إنسان ورسول استثنائي لاشبيه له إنسانياً، أو رسولياً، فهو متفرّد بكل تلك المزايا، كما تتفرّد أمه بكل تلك المزايا التي أكرمها بها الله. ثم أنه ابنها الذي تولى الله تعالى تسميته، فإن قيل لها: أنه ليس ابنك. لأن لاأب له، تجيبهم بقول الله بأنه ابنها، وقول الله راجح على قول البشر. وهذا يجعل عيسى من البشر رغم خصوصيته في الولادة، وبذلك فهو من آل عمران لأن عمران هو جدّه، كما أن حنّة هي جدته، كما أن مريم هي أمه.

أما معنى المسيح، فهناك من قال: هو فعيل بمعنى المفعول يعني أنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب، وقيل: لأنه مسح بالبركة، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن، وقيل مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل، وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له، وقال بعضهم: هو فعيل بمعنى الفاعل، مثل عليم وعالم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي مسيحا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ، وقيل: سمي بذلك لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان.

قال أحمد بن يحيى: سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها، ومنه مساحة أقسام الأرض، وقيل : سمي مسيحاً لأنه مسحه جبريل صلى الله عليه وسلم بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان.

وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المسيح الدجال "سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس" وفي صحيح مسلم: " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات،

ونفسه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله ﴾. و قيل: "إن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به".

يخبرها الملائكة بأنه سيكون:﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾٤٥﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾٤٦

رُوي عن مجاهد أنه قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت أنا وعيسى، حدثني وحدثته، فإذا شغلني عنه إنسان، سبّح في بطني وأنا أسمع قوله.

ويرى الحسين بن الفضل البجلي: "أن المراد بقوله: ﴿وَكَهْلاً﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض"

وروى ابن جريح عن مجاهد قال: الكهل، الحليم. قال النحاس: هذا لا يُعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين. وقال بعضهم: يقال له حدث إلى ست عشرة سنة. ثم شاب إلى اثنتين وثلاثين. ثم يكتهل في ثلاث وثلاثين، قاله الأخفش.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّـهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾٤٧ ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾القراءة والكتابة:﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾التصرف بحكمة، فكل ما يفعل ويقول يكون على قاعدة الحكمة، ذلك أن حكمته مبعثها الله تعالى ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ الكتاب الذي نزل على موسى بن عمران عليه السلام:﴿وَالْإِنجِيلَ﴾٤٨ يعني ذلك أن الله علّمه التوراة والإنجيل معاً،﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾إنه النبي والرسول ما قبل الخاتم، والنبي الخاتم من أنبياء بني إسرائيل، فـ يوسف عليه السلام هو النبي الأول من أنبياء بني إسرائيل، وعيسى يختتم نبوة بني إسرائيل.

ويُروى أن مريم عندما حملت بعيسى كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وعندما بلغ عيسى الثلاثين من عمره، أوحى له الله تعالى، وبقي فقط ثلاث سنوات ينشر الدعوة، حيث رفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان، وبقيت أمه بعد رفعه ست سنين.

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ببيّنة من ربكم تبيّن لكم الحق، وحتى يصدّقوا بأنه رسول الله، فقد قام بما لم يستطع غيره من الأنبياء والرسل القيام به:﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّـهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّـهِ﴾لقد وقف حكماء عصره بذهول أمام ما قدّم لهم من إثباتات بأن الله أرسله إليهم، فها هو يبرئ الأكمه الذي هو أعمى ، ثم الأبرص الذي به برص يستعصي شفاؤه.

قال وهب عن الطير: "كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى. وقيل: لم يخلق غير الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ في القدرة لأن لها ثديا وأسنانا وأذنا، وهي تحيض وتطهر وتلد. ويقال: إنما طلبوا خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق" ومن عجائبه أنه لحم

ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة ، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة. ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعنت فقالوا: أخلق لنا خفاشا واجعل فيه روحا إن كنت صادقا في مقالتك" فأخذ طينا وجعل منه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله".

ثم ليس من كائن مَن كان أن يُحيي ميتاً بعد موته، لأن الله وحده يحيي الموتى، بيد أن الله وبشكل استثنائي أذن لهذا الرجل دون غيره أن يقوم بذلك حتى تكون حجته على قومه أكثر قوة، وأكثر ثباتاً. ومما يُروى أنه عليه السلام، ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بـ يا حي يا قيوم. وأحيا عاذر، وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حياً، ومرّ على ابن ميت لعجوز فدعا الله، فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله وولد له.

بعد كل هذه المعجزات، نراه يقلّب لهم موازين حياتهم برمتها، فيقول:﴿ **وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾٤٩ إن هذا الذي أذن له الله تعالى به، إنما هو إثبات وإقناع لهم بنبوته، حتى يتّبعوه: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**﴾.

تعلم هنا أن هذا الرجل، إنما هو خلق استثنائي على البشر بمشيئة الله، دون أن يخضع للمقاييس البشرية، سواء في الولادة، أوفي الطفولة، أوفي النمو، وكذلك فلم يسبقه أحد في إحياء الموتى، أو ينفخ في الطين، فيتحوّل الطين إلى طير بإذن الله.

ولكن كيف تم ذلك، ما هي تفاصيل ولادة مريم لهذا الرجل الاستثنائي بهذه الصورة الاستثنائية.

يُروى في ذلك أن جبريل عليه السلام، نفخ في جيب قميصها، فنزلت النفخة إلى الفرج، وكذلك يُروى أن النفخة كانت في فمها، فنزلت إلى الموضع الطبيعي للجنين، ثم استمر الأمر كما لو أنها حامل بشكل طبيعي من حيث شهور الحمل، والمخاض . يرى ابن جريج: أنه نفخ في جيب درعها وكمها ، ويقول ابن عباس: أخذ جبريل رُدْن قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. وقال البعض: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولدا، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا في مريم بعضه في رحمها وبعضه في صلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها" لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك.

فقد جاء هذا النبي بما ييسر على بني إسرائيل، وما يبيّن لهم سبل الحق.

رُوي عن قتادة أنه قال: جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا،لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال: "كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام وكان قد حرم عليهما فيما جاء به موسى عليه السلام لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى وحرمت عليهم شحوم الإبل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير مما لا صيصية له، وفي أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها فجاء عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل".

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾حتى يتبيّن لكم الرشد من الغي، لأن ما أنتم عليه إنما هو بعيد عن التقوى :﴿فَاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُونِ﴾٥٠ إلى الحق :﴿إِنَّ اللَّـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾٥١ لا التواء فيه، حيث تجمعنا ربوبية الله لنا، ونحن جميعاً نعبد الله الذي هو ربنا، ثم بعد كل هذه البيّنات:﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾أنهم يجنحون إلى الكفربما يدعو إليه، ويصرّون على الضلال:﴿ قَالَ﴾ لهم:﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّـهِ﴾ مَن يناصرني في دعوتي إلى الله تعالى، يؤازرني، ويساندني، ويُصبح نصيراً لي في الدعوة إلى الله:﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّـهِ آمَنَّا بِاللَّـهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾٥٢

قال السدي: كان سبب ذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله عز وجل إلى بني إسرائيل وأمره بالدعوة نفته بنو إسرائيل وأخرجوه، فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض، فنزل في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما، وكان لتلك المدينة جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوما مهتمًا حزينًا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيبا، قالت: لا تسأليني، قالت: أخبريني لعل الله يفرج كربته، قالت: إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يومًا أن يطعمه وجنوده ويسقيهم الخمر فإن لم يفعل عاقبه، واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة، قالت: فقولي له لا يهتم فإني آمر ابني فيدعو له فيكفى ذلك، فقالت مريم لعيسى عليه السلام في ذلك، فقال عيسى: إن فعلت ذلك وقع شر، قالت: فلا تبال فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا، قال عيسى عليه السلام: فقولي له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماءً ثم أعلمني، ففعل ذلك، فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام، فتحول ماء القدور مرقًا ولحمًا وماء الخوابي خمرًا لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال: من أين هذا الخمر قال: من أرض كذا، قال الملك : فإن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه قال: هي من أرض أخرى، فلما خلط على الملك واشتد عليه قال: فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه، وإنه دعا الله فجعل الماء خمرًا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحب الخلق إليه، فقال: إن رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا، ليستجاب له حتى يحيي ابني، فدعا عيسى فكلمه في ذلك فقال عيسى: لا تفعل فإنه إن عاش وقع شر، فقال الملك: لا أبالي أليس أراه. قال عيسى: إن أحييته تتركوني وأمي نذهب حيث نشاء، قال: نعم فدعا الله فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا

بالسلاح، وقالوا: أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكل أبوه فاقتتلوا فـذهب عيسى وأمه فمر بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال: ما تصنعون؟ فقالوا: نصطاد السمك قال: أفلا تمشون حتى نصطاد الناس، قالوا: ومن أنت قال: أنا عيسى بن مريم عبـد الله ورسـوله مـن أنصـاري إلى الله فـآمنوا بـه وانطلقوا معه.

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حواريـه، يقـول صـلى الله عليـه وسـلم للـزبير:" إنـه ابـن عمـتي، وحواري من أمتي" وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نَـدبَ النـاس يـوم الأحـزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير فقال: « إنَّ لِكُلِّ نَبِيّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيِي الزُّبَيْرُ » .

وعن الحواريين قال مجاهد والسدي: كانوا صيادين يصطادون السمك سمـوا حـواريين لبيـاض ثيـابهم، وقيـل: كانوا ملاحين. وقال الحسن: كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أي يبيضونها. وقـال عطـاء: سلمت مريم عيسى عليه السلام إلى أعمال شتى فكان آخر ما دفعته إلى الحـواريين، وكـانوا قصـارين وصـباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر، فقال لعيسى: إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج في سفر لا أرجع إلى عشرة أيام وهذه ثياب الناس مختلفة الألوان، وقد أعلمت على كل واحد منهـا بخـيط على اللون الذي يصبغ به فيجب أن تكون فارغًا منها وقت قدومي، وخرج فطبخ عيسى جبًا واحـدًا علـى لـون واحد وأدخل جميع الثياب وقال: كوني بإذن الله على ما أريد منـك، فقـدم الحـواري والثيـاب كلـها في الجـب، فقال: ما فعلت؟ فقال: فرغت منها، قال: أين هي؟ قال: في الجب، قال: كلها، قال: نعم قال: لقد أفسدت تلـك الثياب فقال: قم فانظر، فأخرج عيسى ثوبا أحمر، وثوبا أصفر، وثوبا أخضر، إلى أن أخرجها علـى الألـوان الـتي أرادها، فجعل الحواري يتعجب فعلم أن ذلك من الله، فقال للناس: تعالوا فانظروا فآمن بـه هـو وأصـحابه فهـم الحواريون.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُـولَ فَاكْتُبْنَـا مَـعَ الشَّـاهِدِينَ﴾٥٣ ﴿وَمَكَـرُوا وَمَكَـرَ اللَّـهُ وَاللَّـهُ خَيْـرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ٥٤

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قـالوا: قد جاء الساحر ابن الساحرة، والفاعل ابن الفاعلة، وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام دعـا علـيهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير. فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم فزع لـذلك وخـاف دعوتـه فاجتمعـت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام، وثاروا إليه ليقتلوه فبعث الله إليه جبريل فأدخله في خوخـة في سـقفها روزنة فرفعه الله إلى السماء من تلك الروزنة، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقـال لـه: ططيـانوس أن يدخل الخوخة ويقتله، فلما دخل لم ير عيسى، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها، فألقى الله عليه شبه عيسى عليـه السلام، فلما خرج ظنوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصـلبوه، قـال وهـب: طرقـوا عيسـى في بعـض الليـل، ونصبوا خشبة ليصلبوه، فأظلمت الأرض، فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه، فجمع عيسى الحـواريين تلـك

الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه. ولما دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى، فرفع عيسى وأخذ الذي دلهم عليه فقال: أنا الذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه، وهم يظنون أنه عيسى، فلما صلب شبه عيسى، جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب، فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما: علام تبكيان؟ إن الله تعالى قد رفعني ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم، فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: اهبط على مريم المجدلانية ، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها، ولم يحزن حزنها ثم ليجتمع لك الحواريون فبثهم في الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورًا، فجمعت له الحواريين فبثهم في الأرض دعاة ثم رفعه الله عز وجل إليه وتلك الليلة هي التي تدخن فيها النصارى، فلما أصبح الحواريون حدَّث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

نستنتج من ذلك أن مكر الناس هو مكر الخديعة، ومكر الله يتجلى هنا في استدراج الماكرين، كي يقعوا في شر أعمالهم، فمكرهم هنا هو الشر، في حين أن استدراج الله لهم بما مكروا، إنما هو خير يبيّن من خلاله الحق من الباطل.

الباب الحادي عشـــر

ما بعد المسيح

على هذا النحو تمضي السورة، وهي تقرّب شيئاً فشيئاً المسافة بين الرسالتين الأخيرتين، وكذلك بين الرسولين الأخيرين، وهذا من شأنه أن يخفف عن النبي بما يلقاه من مشقة في نشر الرسالة، فمعاناة النبي عيسى هنا تكون عوناً له على تحمّل ما ينجم عن نشر الرسالة.

غدا النبي هنا أمام مرحلة غياب النبي عيسى بعد ثلاث سنوات من مشقة نشر الرسالة، وهذه إشارة بدنو مرحلته، وهو يكون على اطلاع جيد بما وقع مع سابقه. يقول له الله هنا: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّـهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة:﴿**إني متوفيك ورافعك إليّ**﴾ قال: هذا من المقدم والمؤخر: أي رافعك إليّ ومتوفيك.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مطر الوراق في الآية قال: ﴿**متوفيك**﴾ من الدنيا وليس بوفاة موت. وأخرج ابن جرير بسند صحيح عن كعب قال: لما رأى عيسى قلة من اتبعه وكثرة من كذبه، شكا ذلك إلى الله. فأوحى الله إليه ﴿**إني متوفيك ورافعك إليَّ**﴾ وإني سأبعثك على الأعور الدجال فتقتله، ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة، ثم أميتك ميتة الحي. قال كعب: وذلك تصديق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**كيف تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى في آخرها**"؟

وأخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال: لم يكن نبي كانت العجائب في زمانه أكثر من عيسى إلى أن رفعه الله، وكان من سبب رفعه أن ملكاً جباراً يقال له داود بن نوذا، وكان ملك بني إسرائيل هو الذي بعث في طلبه ليقتله، وكان الله أنزل عليه الإنجيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ورفع وهو ابن أربع وثلاثين سنة من ميلاده. فأوحى الله إليه ﴿**إني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا**﴾ يعني ومخلصك من اليهود فلا يصلون إلى قتلك[١٥]

---

[١٥]أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن في الآية قال: رفعه الله إليه فهو عنده في السماء

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب قال: توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار رفعه إليه.

وأخرج ابن عساكر عن وهب قال: أماته الله ثلاثة أيام بعثه ورفعه

وأخرج الحاكم عن وهب أن الله توفى عيسى سبع ساعات ثم أحياه، وإن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة، وأنه رفع ابن ثلاث وثلاثين، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين.

وأخرج ابن اسحق بن بشر وابن عساكر من طريق جوهر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿**إني متوفيك ورافعك**﴾ يعني رافعك ثم متوفيك في آخر الزمان

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جرير في الآية قال: رفعه إياه توفيته

ثم يخبر الله رسوله بأنه طهّر عيسى:﴿ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولعل المعنى أبرأه مما باتوا عليه من ذنوب بعد أن أبلغهم رسالة الله، فالانسان يتطهّر بتوحيد الله عز وجل، وإن أشرك عدا نجساً بشركه. يقول الله:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾التوبة٢٨

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾فيخبر الله نبيه كذلك بأن الذين يتبعون الحق الذي أوحي إلى عيسى من ربه، هم فوق الذين كفروا بالحق، ثم أن هؤلاء سيكونون سنداً للنبي الخاتم الذي سيأتي بعد عيسى، لأن اتباعهم لعيسى يجعلهم يتبعون النبي الذي يأتي بعد عيسى كذلك من الله. فإذا نظرنا جملة ذلك، سيجلو لنا بأن النبي هنا عَلِم من ربه أن الله تعالى يُظهر النبي من نجس المشركين في حال إصرارهم على الشرك، فلا يكون النبي هنا قد فشل في نشر رسالته، وبالتالي يتحمّل مسؤولية هذا الفشل، بل أنه لا يحل له أن يرغم عليهم الإيمان بقوة السيف إن أصرّوا على الشرك، وعليه أن يكتفي بإبلاغ رسالة الله لهم قولاً كما تلقاها قولاً، فهو يحمل الكلمة من الله، ولا يحمل سيفاً، وإن حمل السيف على الناس، خرج عن رسالة الله، ثم أنه لا يجوز لأي شخص بعد الأنبياء أيضاً أن يحمل السيف، ويرغم الناس على دخول الإسلام، لأنه سيكون قد خرج عن رسالة الأنبياء.

فإن أشهر هذا المشرك، أو الكافر إسلامه اتقاء شرّ حامل السيف، فلا يكون الإسلام متأصلاً في معتقده، بيد أنه إن دخل الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، تأصل فيه الإسلام، ولذلك نرى في مختلف العقود الزمنية أناساً مشركين، يشهرون إسلامهم، ثم يتحوّلون إلى دعاة للإسلام في مجتمعاتهم، وما ذلك إلاّ لأن أساس إيمانهم هو أساس صحيح نجم عن الحكمة، والكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، فتراه ينتهج ذات المنهج الحسن في نشر الدعوة في قلب مجتمعه غير الإسلامي.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾٥٥ فالله هو المرجع الذي يصدر عنه الحكم سواء في الدنيا، أو في الآخرة :﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾٥٦ يتبيّن هنا بأن الكافر لايكون سعيداً في كفره، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، فحتى النِعَم تتحوّل لديه إلى أشكال العذاب، فترى المال يتسلط عليه، والولد يتسلط عليه، والزوجة تتسلط عليه، والصديق يتسلط عليه، بل حتى نفسه تتسلط عليه، وأعضاؤه تتسلط عليه، فلا يهنأ بتناول طعام طيب، ولاينتعش بشراب لذيذ، ولايجد له

وقال الحسن: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود: «إن عيسى لم يمت وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة".

وأخرج الحاكم عن الحريث بن مخشي أن علياً قتل صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، فسمعت الحسن بن علي وهو يقول: قتل ليلة أنزل القرآن، وليلة أُسْرِيَ بعيسى، وليلة قُبِضَ موسى.

قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه الثالث: قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**﴾الزمر: ٤٢

ناصرين، ثم من الطرف الآخر:﴿وَأَمَّا الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ فَيُـوَفِّيهِمْ أُجُـورَهُمْ وَاللَّـهُ لَـا يُحِـبُّ الظَّالِمِينَ﴾٥٧

وهنا يمكنك أن تدرك بأن المؤمن الذي يُتوّج إيمانه بعمل الصالحات، يلمس السكينة في جميع أوجه الحياة، وأن الله ييسر له شأنه، ويجد له ناصرين، فإن كان ذلك يعيش في معزل عن الناس في صقيع عزلته ووحشة فردانيته، فإن هذا يعيش في قلب المجتمع مع دفء الناس، وحميمية العلاقات الاجتماعية.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾من خلال جبريل، فما يتلوه جبريل، يكون عن الله، لأنه رسول الله إلى رسول الله، وبالتالي، فإن ما يقوله رسول الله لعباد الله، إنما هو ما يقوله الله:﴿مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾٥٨

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّـهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾٥٩

نزلت هذه الآية بإجماع المفسرين عندما تحاور وفد نجران مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: "إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى".

وهذه رفعة لمنزلة عيسى حيث قارنه الله تعالى بآدم الذي خلقه الله دون ذكر، ودون أنثى، ثم خلق حواء من ذكر دون أنثى، ثم خلق عيسى من أنثى دون ذكر.

لكن يُحتمَل أن يكون المقصود هو آدم، وليس عيسى، فيمكننا أن نقرأ الآية :﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّـهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾في أنه عبدً لله كمثل آدم الذي﴿خَلَقَهُ﴾ربه:﴿ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ذلك أن الله خلق إنساناً واحداً من التراب، وهو أصل البشر آدم عليه السلام، وحتى حواء فإنه لم يخلقها من تراب، ثم بعد ذلك بدأ الخلق يتكاثر بشكل طبيعي من ذكر وأنثى دون أن يخلق الله إنساناً آخر من تراب، حتى عند فناء الناس في الطوفان الأكبر، فإنه لم يخلق نوحاً من تراب، بل نجّاه ومَن معه، وكان يمكن لله تعالى أن يخلق النبي نوح من تراب، ويتكرر الأمر كما حدث مع أبينا آدم عليه السلام، لكن مشيئة الله قضت أن يبقى آدم هو أساس البشر الذي خلقه الله من تراب.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾٦٠ أن تمتري، يعني أن تريب، فالله يأمر نبيه ألاّ يريب بالحق الذي أتاه، وعلى ذلك، فيكون الأمر لملّة الإسلام كي تأتسي برسولها، لأن الرسول لايشك بما بلغه من الحق، فالأمر يكون للملّة في شخص النبي:﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أتى بحجج باطلة عن الحق، أو عن المسيح :﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾علم اليقين من الله:﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّـهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾٦١

وهذه دعوة للمباهلة بحضور الجميع، فأبناءنا ،هما الحسن والحسين، ونساءنا هي أمهما فاطمة، وأنفسنا، يعني النبي، وعلياً[١٦]

١٦

أورد هنا جانباً من رواية طويلة للبيهقي عن وفد نجران، يقول فيها:" حدثنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل، قالا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن سلمة بن عبدِ يَسُوع، عن أبيه، عن جده قال يونس – وكان نصرانيا فأسلم– :إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل نجران قبل أن ينـزل عليه طس سليمان: « بِاسْمِ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ إِلَى أسْقف نَجْرانَ وأهْلِ نَجْرانَ سِلْم أَنْتُم، فإنِّي أحْمَدُ إِلَيْكُمْ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ. أَمَّا بَعْدُ، فإنِّي أَدْعُوكُم إِلَى عِبَادَةِ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ، وأدْعُوكُمْ إِلَى وِلايَةِ اللهِ مِنْ وِلايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجِزْيَةُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ آذَنْتُكُمْ بِحَرْبٍ والسَّلامُ » .

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه فَظِعَ به، وذَعَره ذُعرًا شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له:شُرَحْبيل بن وَداعة – وكان من هَمْدان ولم يكن أحد يُدْعَى إذا نـزلت مُعْضلة قَبْلَه، لا الأيهم ولا السِّيد ولا العاقب– فدفع الأسْقُفُ كتابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شُرَحْبيل، فقرأه، فقال الأسقف:يا أبا مريمَ، ما رأيك ؟ فقال شرحبيل:قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما يُؤْمنُ أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأيي، وجَهِدتُ لك، فقال له الأسقف:تَنَحَّ فاجلس. فَتَنَحَّى شرحبيل فجلس ناحية، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له:عبد الله بن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حِمْير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، فقال له الأسقف:فاجلس، فتَنَحى فجلس ناحية. وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران، يقال له:جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب، أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه؟ فقال له مثل قول شُرَحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحية. فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعًا، أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به، ورُفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فَزعوا بالنهار، وإذا كان فزعُهم ليلا ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله – وطولُ الوادي مَسِيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأيُ أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن ودَاعة الهمداني، وعبد الله ابن شُرَحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي، فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُلَلا لهم يجرونها من حبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم وتصدوا لكلامه نهارا طويلا فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا مَعْرفة لهم، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا:يا عثمان ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارا طويلا فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب – وهو في القوم– :ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال عَليّ لعثمان ولعبد الرحمن:أرى أن يضعوا حُللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودا إليه. ففعلوا فسلموا، فرد سلامهم، ثم قال: « والَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمرَّةَ الأولَى، وإنَّ إبْلِيسَ لَمَعَهُم » ثم ساءلهم وساءلوه، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا:ما تقول في عيسى، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، يسرنا إن كنت نبيا أن نسمع ما تقول فيه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَا عِنْدِي فِيهِ شيء يَوْمِي هَذَا، فَأَقِيمُوا حَتَّى أُخْبِرَكُمْ بما يقول لي رَبِّي في عيسَى » . فأصبح الغد وقد أنـزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خَمِيل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة، وله يومئذ عدة نسوة، فقال شرحبيل لصاحبيه:قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي وإني والله أرى أمرا ثقيلا والله لئن كان هذا الرجل

﴿إِنَّ هَـذَا﴾ الذي نتلوه عليك :﴿ لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللَّـهُ وَإِنَّ اللَّـهَ لَهُوَالْعَزِيزُالْحَكِيمُ﴾٦٢ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ عن هذا الحق وأعرضوا عنه:﴿فَإِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾٦٣ فإنما يبتغون بذلك فسـاداً وانظـر إلى بلاغة المعنى، فأن تُفسد شيئاً، ذلك يعني بأنه صالح، بيد أنك تسعى إلى إفساده، فإن كان فاسداً في الأصل، ما احتاج إلى إفساد، بيد أنه صالح في الأصل، ولذلك السعي من المفسدين إلى إفساده.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ يخبر الله نبيه أن يدعو وفد نجران إلى كلمة عادلـة تكون الوسيط بينهما وهي:﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّـهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّـن دُونِ اللَّـهِ﴾ وهو مطلب وسطي بين الفريقين، حيث لا ترجيح لكفة أحدهما على الآخر، فالاحتكام هنا إلى وحدانية الله الذي هو رب الفريقين المتحاورَين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أرادوا ترجيح كفتهم بالشرك ، واتخاذ بعضهم بعضاً ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّـهِ﴾ : ﴿فَقُولُوا﴾ يا من حضرتم هذه المباهلة، قولوا للطرف الآخر:﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾٦٤ ﴿مُسْلِمُونَ﴾ بوحدانية الله الذي لاشريك له، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّـهِ﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾٦٥

فاليهود يقولون بأن إبراهيم كان يهودياً ونحن نتبعه، ثم أن النصارى يقولون بأنه كـان نصـراني، ونحـن نتبعـه، ويأتي السؤال هنا بصيغة التعجب:﴿لِمَ﴾:﴿ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾

يقول محمد بن إسحاق بن يسار:"حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيـد بـن ثابـت، حـدثني سـعيد بـن جـبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال:اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فتنـازعوا عنده، فقالت الأحبار:ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنـزل الله تعـالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنـزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾

ملكا مبعوثا، فكنا أول العرب طعن في عينيه ورد عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا لأدنى العرب منهم جوارا، ولئن كان هذا الرجل نبيا مرسلا فلاعَنَّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شَعْر ولا ظُفُر إلا هلك. فقال له صاحباه:يا أبا مريم، فما الرأي؟ فقال:أرى أن أحكمه، فإني أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا. فقالا له:أنت وذاك. قال:فلقي شرحبيلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال له:إني قد رأيت خيرا من ملاعنتك. فقال: « وما هو؟ » فقال:حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لَعَلَّ وَرَاءكَ أَحَدًا يَثْرِبُ عَلَيْكَ؟ » فقال شرحبيل:سل صاحبي. فسألهما فقالا ما يرد الوادي ولا يَصْدُرُ إلا عن رأي شرحبيل:فَرَجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلاعنهم، حتى إذا كان الغد أتوه فكتب لهم هذا الكتاب: « بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ النَّبِي رَسُولُ اللهِ لِنَجْرَانَ – إنْ كَانَ عَلَيْهِمْ حُكْمَهُ– فِي كُلِّ ثَمَرَةٍ وَكُلِّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ وَرَقِيقٍ فَاضِلٍ عَلَيْهِمْ، وتَرْكُ ذَلِكَ كُلِّهُ لَهُمْ، عَلَى أَلْفَي حُلَّةٍ، فِي كُلِّ رَجَبٍ أَلْفُ حُلَّةٍ، وفِي كُلِّ صَفَرٍ أَلْفُ حُلَّةٍ ».

﴿هَا أَنتُمْ هَـؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَالَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾مما هو حاضر وقيد الحوار بيني وبينكم :﴿ فَلِـمَ تُحَـاجُّونَ فِيمَـا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾عن ابراهيم الذي لاتعلمون عنه الحقحيـث بـين إبـراهيم وموسـى ألـف سـنة، وبـين موسـى وعيسى ألفا سنة:﴿ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُون﴾٦٦

لايقتصر هذا على الموقف، وبانتهاء الموقف، ينتهي مفعول الآية، فالوقائع تتحـوّل في القـرآن إلى عِبَـر لإنسـان كل زمان ومكان، ومن هذه العبر تتفرّع تفرعات تتبع لها، ولعلي أذكر هنا رواية واقعة وقعت مـع الـنبي صـلى الله عليه وسلم مع رجل ولدت زوجته ولداً، فشكّ في نسبة الولد إليه، وراح يشكو ذلك لرسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فقال له:" يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود. فقال رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم: هـل لك من إبل ؟ قال: نعم.

قال: ما ألوانها ؟ قال: حمر: قال: هل فيها من أورق ؟ قال : نعم. قال: فمن أين ذلك ؟ قال: لعل عرقا نزعه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهذا الغلام لعل عرقا نزعه".

ثم يخبر الله نبيه بأن يقول لهم بأن الله الذي يعلم يقول:﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾٦٧ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَاالنَّبِيُّ وَالَّـذِينَ آمَنُواوَاللَّـهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾٦٨

قال سعيد بن منصور:أخبرنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق، عن ابن مسعود، رضي الله عنه" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيّ وُلاةً مِنَ النَّبِـيِّينَ، وإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أبي وخَلِيلُ رَبِّي عز وجل » . ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِـيُّ وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمن وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى دينهم: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾٦٩ إنهـم من خلال سعيهم لإضلال المؤمنين، إنما يزدادون ضلالاً بأنفسهم دون أن يشعرون، لأن مـا يشـغلهم هـو كيفيـة إضلال المؤمنين، ومن خلال ذلك يزدادون عمقاً في الضلال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُـرُونَ بِآيَـاتِ اللَّـهِ وَأَنـتُمْ تَشْهَدُونَ﴾٧٠ عندما يثبت الحق من كل جانب، ولاتبقى للكافرين الحجج، يتكرر توجيه السؤال ﴿لِـمَ﴾الـذي يحضهم على التعجب مما هم فيه لعلهم يعقلون، فيتكرر السؤال مرات عديدة، فيبلغ الله نبيه كي يوجه إليهم هـذا السؤال المكرر بأداة التعجب، فيذكّرهم بأنهم يكفرون بقصد الكفر، وهم يشهدون الحق الـذي أتـى بـه محمـد، سواء من شخصه، أو من التوراة والإنجيل حيث فيهما الأدلة على مجيء محمد صلى الله عليه وسـلم. ثـم بتكـرار السؤال عل وجه آخر من حضهم على العجب:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾٧١ اللبس هنا هو المواراة، فأن تُلبس جسدك، يعني أنك تواري جسدك، وكلنا عراة تحت ألبسـتنا، أي

أن حقيقة أجسادنا تكمن خلف اللباس، فهؤلاء يُخفون الحق بلباس الباطل، لكن الأصل الثابت، هو الحق، والمتحرّك هو الباطل، كما أن الأصل الثابت هو البدن، والمتحرّك هو اللبس.

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال بعض أهل الكتاب لبعض:﴿آمِنُوا بِالَّذِي﴾ بالقرآن الذي:﴿أُنزِلَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المسلمين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم :﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أول النهار: ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾٧٢ أي خادعوهم حتى تردّوهم عن إيمانهم. ثم:﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ لمن ترك محمداً صلى الله عليه وسلم، وتبعكم فيما أنتم فيه. وذلك حتى يتخذوا من هؤلاء أوراقاً رابحة بأيديهم، فيحاججون بهم الناس بأن هؤلاء الذين دخلوا دين محمد، هاهم خرجوا منه نادمين، وهم أولى بهذا الدين، كونهم علموه، فلم يقتنعوا به، فخرجوا منه وتبعونا، فإذن نحن على صواب، وهم على خطأ، وهذا برهاننا.

﴿قُلْ ﴾يا محمد لهؤلاء:﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّـهِ﴾إن مَن يهديه الله، لايضله أحد،رأى ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: "الدين دين الله " ولعل ابن عباس استند في تأويله إلى أنهم قالوا:﴿ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ولم يقولوا: لمن تبع دين الله، فذاك هو دينهم، وهذا هو دين الله. يأمر الله نبيه أن يقول للكافرين:﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾الكافرون٦ لم يقل: لي ديني، لأن الدين عند الله واحد، الإسلام الذي أتى به جميع الرسل.

﴿أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَمَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَرَبِّكُمْ ﴾ألاّ يخبروا المسلمين بما في التوراة والإنجيل، لأن ذلك سيكون حجة للمسلمين عليهم، ولذلك يخفون ما لديهم بهذا الشأن عن المسلمين، فيبيّن الله في حديثه لنبيه ﴿قُلْ﴾ – لهم– :﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيم﴾٧٣

إن الله الذي فضّل عليكم بأن علّمكم، قادر أن يفضّل عليهم أيضاً بأن يعلّمهم ما تخفونه عنهم:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾٧٤ على الناس جميعاً

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ يعيد لك مالك الكثيروذلك لأنه أمين مثل عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا ومائتي أوقية ذهباً فأداها إليه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾لأنه خائن، مهما كان هذا المال قليلاً مثل كعب بن الأشرف الذي استودعه قرشي ديناراً فأنكره عليه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك ين دينار قال: إنما سمي الدينار لأنه دين، ونار، قال: معناه أن من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذ بغير حقه فله النار.

وأخرج الخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن الدرهم لِمَ سمي درهماً، وعن الدينار لِمَ سمي ديناراً؟ قال: أما الدرهم فكان يسمى دارهم، وإما الدينار فضربته المجوس فسمي دينار

وفي الحديث: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل حلف يمينا على مال مسلم فاقتطعه، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد صلاة العصر أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل منع فضل مالهِ فإن الله تعالى يقول: اليوم أمنعك فضل ما لم تعمل يداك » .

في صحيح البخاري:وقال الليث:حدثني جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هُرْمُـز الأعـرج، عـن أبـي هريـرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْـضَ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ:ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ. فَقَالَ:كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. قَـالَ:ائْتِنِي بِالْكَفِيـلِ. قَـالَ:كَفَى بِاللَّـهِ كَفِيلا. قَالَ:صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَـهُ، ثُـمَّ الْـتَمَسَ مَرْكَبًـا يَرْكَبُهَـا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكِبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْـفَ دِينَـارٍ، وَصَـحِيفَةً مِنْـهُ إِلَـى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ:اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي استَسْلَفْتُ فُلانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَـأَلَنِي كَفِيلا فَقُلْتُ:كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلا فَرَضِيَ بِكَ . وَسَأَلَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْتُ:كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّـي جَهَـدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي استَوْدَعْتُكَهَا . فَرَمَـى بِهَـا فِـي الْبَحْـرِ حَتَّـى وَلَجَـتْ فِيـهِ، ثُـمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُـرُ لَعَـلَّ مَرْكَبًـا يَجِيئُـهُ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّـحِيفَةَ، ثُـمَّ قَـدِمَ الَّـذِي كَانَ تَسَلَّف مِنْهُ، فَأَتَاه بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَقَالَ:وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ:هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ:أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا؟ قَالَ:فَـإِنَّ اللَّـهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ ، فَانْصَرِفْ بِأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا ".

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾يعنون بالأميين، العرب، وسبيل، بمعنـى حـق، وبـذلك فـإنهم يستحلّون أموال العرب، ويقولون بأنها خلال لهم، ثم ينسبون ذلك إلى الله عندما يقولون بأن ذلك أباحـه الله في كتبهم، فيخبر الله نبيه عن ذلك:﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾٧٥

قال الكلبي: قالت اليهود إن الأموال كلها كانت لنا فما في يد العرب منها فهو لنا وإنما ظلمونا وغصبونا فـلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم.

وقال الحسن وابن جريج ومقاتل: بايع اليهود رجالا من المسـلمين في الجاهليـة فلمـا أسـلموا تقاضـوهم بقيـة أموالهم فقالوا: ليس لكم علينا حق، ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم، وانقطع العهـد بيننـا وبينـكم وادعـوا أنهم وجدوا ذلك في كتبهم فكذبهم الله عز وجل وقال عـز مـن قائـل: ﴿ **وَيَقُولُـونَ عَلَـى اللَّـهِ الْكَـذِبَ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ** ﴾

يبـيّن الله:﴿ **بَلَـى**﴾وردت كإجابـة بتأكيـد كـذبهم علـى الله:﴿**مَـنْ أَوْفَـى بِعَهْـدِهِ وَاتَّقَـى فَـإِنَّ اللَّـهَ يُحِـبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾٧٦و:﴿ **مَنْ**﴾شملت الناس جميعاً ، وليس :﴿**أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى**﴾مع المسلمين فحسب، بل مع الكافرين أيضاً.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّـهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ وَلَـا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾٧٧

أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب وابـن عسـاكر عـن عدي بن بحيرة قال: «كان بين امرئ القيس ورجل من حضرموت خصومة فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسـلم فقال للحضرمي: بينتك وإلا فيمينة قال: يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضـي فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم: من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حق أخيه لقي الله وهو عليه غضبان. فقال امرؤ القـيس: يـا رسـول الله فما لمن تركها وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة... فقال: أشهدك إني قد تركتها. فنزلت هذه الآية ﴿**إن الـذين يشـترون بعهـد الله وأيمـانهم ثمنـاً قلـيلاً**﴾» إلى آخـر الآيـة. لفـظ ابـن جريـر. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج: «أن الأشعث بن قيس اختصم هو ورجل إلى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم في أرض كانت في يده لذلك الرجل أخذها في الجاهلية فقال رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم أقـم بينتـك قـال الرجل: ليس يشهد لي أحد على الأشعث قال: فلك يمينه فقال الأشعث: نحلف. فأنزل الله: ﴿**إن الذين يشـترون بعهد الله**...﴾ الآية. فنكل الأشعث وقال: إني أشهد الله وأشهدكم أن خصمي صادق، فـرد إليـه أرضـه، وزاده من أرض نفسه زيادة كثير".

أخرج ابن جرير عن الشعبي، أن رجلاً أقام سلعته من أول النهار، فلما كان آخره جاء رجل يساومه، فحلـف لقد منعها أول النهار من كذا، ولولا المساء ما باعها بهفأنزل الله: ﴿**إن الـذين يشـترون بعهـد الله وأيمـانهم ثمنـاً قليلاً**﴾وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قلـيلاً**﴾ في أبي رافع، وكنانة بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وحيي بن أخطبوأخرج ابن أبي شيبة من طريق ابـن عـون عن إبراهيم ومحمد والحسن في قوله: ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً**﴾ قالوا: هو الرجـل يقتطـع مال الرجل بيمينه.[١٧]

---

[١٧]وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال: «جاء رجل من حضرموت، ورجل مـن كنـدة إلى الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم فقـال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا قد غلبني على أرض كانت لأبي. قال الكندي: هي أرض كانت في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للحضرمي: ألك بينة؟ قال: لا. قال: فلك يمينه فقال: يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتـورع عـن شـيء فقال: ليس لك منه إلا ذلك، فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أدبر: لئن حلف على مـال ليأكلـه ظلمـاً لـيلقين الله وهـو عنـه معرض.«

وأخرج أبو داود وابن ماجة عن الأشعث بن قيس «أن رجلاً من كندة، وآخر من حضرموت، اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم في أرض مـن اليمن فقال الحضرمي: يا رسول الله إن أرضي اغتصبها أبو هذا وهي في يده فقال: هل لك بينة؟ قـال: لا. ولكـن أحلفـه والله مـا يعلـم أنهـا أرضـي اغتصبها أبوه. فتهيأ الكندي لليمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقتطع أحد مالاً بيمين إلا لقي الله وهو أجذم فقال الكندي: هي أرضه.« وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني بسند حسن عن أبي موسى قال: «اختصم رجلان إلى الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم في أرض أحـدهما مـن حضرموت، فجعل يمين أحدهما فضج الآخر وقال: إذن يذهب بأرضي فقال: إن هو اقتطعها بيمينه ظلماً كان ممن لا ينظر الله إليـه يـوم القيامـة، ولا يزكيه، وله عذاب أليم، قال: وروع الآخر فردها.«

وأخرج أحمد بن منيع في مسنده والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن مسعود قال: كنا نعد من الذنب الذي ليس كفارة اليمين الغموس قيل: وما اليمين الغموس؟ فقال: الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل.

وأخرج ابن حبان والطبراني والحاكم وصححه عن الحرث بن البرصاء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج بين الجمرتين وهو يقول: «من اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة فليتبوّأ مقعده من النار. ليبلّغ شاهدكم غائبكم مرتين أو ثلاثاً.«

وأخرج البزار عن عبد الرحمن بن عوف «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اليمين الفاجرة تذهب بالمال.«

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس مما عُصِيَ الله به هو أعجل عقاباً من البغي، وما من شيء أُطيع الله فيه أسرع ثواباً من الصلة. واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع.«

وأخرج الحرث بن أبي أسامة والحاكم وصححه عن كعب بن مالك «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين مسلم كاذبة كانت نكتة سوداء في قلبه لا يغيرها شيء إلى يوم القيامة.«

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه عن جابر بن عتيك قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من اقتطع مال مسلم بيمينه حرَّم عليه الجنة وأوجب له النار. فقيل: يا رسول الله وإن شيئاً يسيراً؟ قال: وإن سواكاً.«

وأخرج مالك وابن سعد وأحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة. قالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيباً من أراك ثلاثاً.«

وأخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحلف عند هذا المنبر عبد ولا أمة على يمين آثمة ولو على سواك رطبة إلا وجبت له النار.«

وأخرج ابن ماجة وابن حبان عن جابر بن عبد الله قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين آثمة عند منبري هذا فليتبوّأ مقعده من النار. ولو على سواك أخضر» قال أبو عبيد والخطابي: كانت اليمين على عهده صلى الله عليه وسلم عند المنبر.

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن اليمين الكاذبة تنفق السلعة وتمحق الكسب.«

وأخرج عبد الرزاق عن أبي سويد قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن اليمين الفاجرة تعقم الرحم، وتقل العدد، وتدع الديار بلاقع.«

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: رجل حلف يميناً على مال مسلم فاقتطعه، ورجل حلف على يمين بعد العصر أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل منع فضل ماء فإذن الله سبحانه يقول: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك.«

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير والحاكم وصححه عن عمران بن حصين، أنه كان يقول: من حلف على يمين فاجرة يقتطع بها مال أخيه فليتبوّأ مقعدة من النار. فقال له قائل: شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال لهم: إنكم لتجدون ذلك ثم قرأ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم﴾ الآية.

وأخرج البخاري عن ابن أبي مليكة، أن امرأتين كانتا تخرزان في بيت، فخرجت إحداهما وقد أنفذ بإشفاء في كفها فادعت على الأخرى، فرفع إلى ابن عباس فقال ابن عباس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو يُعطي الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ذكروها بالله، واقروا عليها ﴿إن الذين يشترون بعهد الله...﴾ الآية. فذكروها فاعترفت.«

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن المنذر عن سعيد بن المسيب قال: إن اليمين الفاجرة من الكبائر. ثم تلا ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾.

قال الإمام أحمد:حدثنا وَكِيع، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضـي الله عنـه قال:قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: « ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَة وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِمْ ولَهم عذابٌ أليم:رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ – يَعْنِـي كَاذِبًـا– وَرَجُـلٌ بَـايَعَ إِمَامًـا، فَـإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ »[18]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنـدِ اللَّـهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّـهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾78

يلوون، أي لايقرأونه على وجهه الصحيح، فيُحدثون في قراءته إعوجاجاً وذلـك مـن خـلال تشـكيل الكلمـة تشكيلاً ملتوياً بما يوحي بالمعنى الملتوي حتى يحسبه المسلمون:**﴿ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾**

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: كنا نرى ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مـن الـذنب الـذي لا يغفـر يمـين فجـر فيهـا صـاحبها. وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال: من قرأ القرآن يتأكل الناس به أتى الله يوم القيامة ووجهه بين كتفيه، وذلك بأن الله يقول ﴿إن الـذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾.

وأخـرج ابـن أبـي شـيبة في المصـنف عـن زاذان قـال: مـن قـرأ القـرآن يأخـذ بـه جـاء يـوم القيامـة ووجهـه عظـم عليـه لحـم. وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذر قال: «قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان.« وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليـم: أشمط زانٍ، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله له بضاعة فلا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه

[18] رواه أبو داود، والترمذي، من حديث وكيع، وقال الترمذي:حسن صحيح .

الباب الثانـــي عشر

ميثاق النبيين

في هذه المرحلة يتحدّث الله جل ثناؤه، للنبي صلى الله عليه وسلم عن صلب المهمة التي جعل الله الأنبياء من أجلها، وهنا يُطلع الله خاتم رسله على المهام التي قام بها رسل الله وأنبياؤه من قبله. يقول في مستهل هذا الحديث: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّـهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّـهِ وَلَـٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾٧٩

قيل أن رجلاً قال للنبي: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله".

قال محمد بن إسحاق:"حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عِكْرِمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال:قال أبو رافع القُرَظِي، حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام:أتريد يا محمد أن نعبدكَ كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس:أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعوننا؟ أو كما قال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَعَاذَ اللهِ أنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أو أنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِه، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، ولا بِذَلِكَ أَمَرَنِي " . أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** ﴾ الآية "

و:﴿**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ قال ابن عباس وأبو رَزِين وغير واحد، أي:حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد:فقهاء، وكذا رُوِي عن ابن عباس، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وعطاء الخراساني، وعطية العوفي، والربيع بن أنس. وعن الحسن أيضا:يعني أهل عبادة وأهل تقوى.

وليس هذا فحسب، بل:﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا**﴾ ذلك أن قريش والصابئة قالوا: الملائكة بنات الله، وقال اليهود والنصارى في المسيح وعُزيز قولهم. يبيّن الله:﴿**أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾٨٠

فمهمة الأنبياء والرسل تكمن في إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وليس في إخراجهم من الإيمان إلى الكفر

﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ**﴾ أخذ الله عليهم العهد، يقول علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبيا آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد، وأخذ العهد على قومه ليؤمِنُنَّ به ولئن بُعث وهم أحياء لينصرنه.

﴿**لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ** ﴾ – خاتمكم محمد–﴿ **مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي**﴾قال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، وقتادة، والسدي:يعني عهدي:﴿**قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾٨١

﴿**فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾٨٢يُحتمل هنا أن المتولي هو الذي يتبع نبيه، لأن الأنبياء لاينكثون عهودهم مع الله، فهؤلاء أخذ الله عليهم الميثاق، والذي يحيد عن ميثاق نبيه مع الله يكون فاسقاً.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّـهِ﴾الإسلام :﴿يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يامحمد :﴿آمَنَّا بِاللَّـهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا بالمقابل بمثابة الميثاق من النبي بتصديق ما أتى به الأنبياء والرسل من قبله :﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كما لو أنهم نبي واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لربنا:﴿مُسْلِمُونَ﴾٨٤ نُصبح في إسلامنا لربنا شخصاً واحداً، حيث يجمعنا جميعاً هدي الله الذي أرسلنا به الله للناس:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ دين الله الذي نشترك جميعاً في حمله:﴿دِينًا﴾

فيبتدع شيئاً من عنده، ويسعى إلى الإخلال بكل هذه القواعد والموازين التي أرساها الله:﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾٨٥ يُروى أن هذه الآية نزلت في اثني عشر رجلا ارتدُّوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، فنزلت فيهم

:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّـهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾٨٦ قال ابن جرير:حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع البصري، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال:كان رجل من الأنصار أسلم ثم

ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه:أن سَلُوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:هل لي من توبة؟ قال:فنزلت: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وهكذا رواه النسائي، وابن حبان، والحاكم، من طريق داود بن أبي هند، به. وقال الحاكم:صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال عبد الرزاق:أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا حُمَيد الأعرج، عن مجاهد قال:جاء الحارث بن سُوَيد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال:فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه. فقال الحارث:إنك والله ما علمتُ لصدوق، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال:فرجع الحارث فأسلم فحَسُنَ إسلامه .

﴿أُولَـئِكَ﴾الذين ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ولبثوا ثابتين على كفرهم وارتدادهم عن الإيمان"ولعل هذا يشير إلى شيء من الاستكبار لدى هؤلاء الذين ارتدّوا عن الدين بعد أن آمنوا به، وإن كان كل شيء يدعو للدخول في الدين، فلاشيء يبرر الخروج عنه، فذلك الذي استكبر وتعالى عن الدين، من جهة أخرى فهؤلاء يكونون حجة لدى الكفار كونهم خرجوا من صلب الدين بعد أن كانوا فيه، وكانوا جنوده، وكانوا جزءاً منه.

وإذا كان هذا في الدين، فهو كذلك في المواطنة، عندما يخرج المواطن عن موطنه، ويذهب إلى العدو يفشي له الأسرار، ثم يطعن في موطنه، فتتم إدانته بالخيانة العظمى، فكذلك هو المرتدّ الذي يرتكب بارتداده عن الإيمان الخيانة العظمى لدِينه، ولجميع أبناء دِينه، فهؤلاء:﴿**جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾٨٧ ثم تستكمل الآية التالية المعطوفة:﴿**خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ**﴾٨٨ .

هذا حسم لاجدال فيه، يناله المرتدّ، وإذا تأملنا دلالات معاني كلمات الآيتين، سنجدها مرعبة، وأي شقي هو ذاك الذي يقبل على نفسه ذلك، لكن رحمة الله دوماً هي الراجحة، وإن كان الناس، لايتسامحون مع ذاك الذي ارتدّ عن وطنه، ووقف في صف العدو، فإن الله برحمته التي وسعت كل

شيء، لايغلق باب التوبة حتى في وجوه هؤلاء وقد فعلوا ما فعلوا، فيستثني تبارك وتعالى برحمته: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾٨٩

ندموا، ولعله قد غُرر بهم، أوما شابه، ثم اكتشفوا بأنهم أخطأوا، فتابوا، وأصلحوا ما كان في نفوسهم من فساد، وعادوا صالحين في نفوسهم، وفي أعمالهم، وفي الناس

وفي هذا، يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم" فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: هل له من توبة؟ فنزلت « **كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم** » إلى قوله:« **غفور رحيم** » . فأرسل إليه فأسلم. أخرجه النسائي. وفي رواية: أن رجلا من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين، فأنزل الله﴿**كيف يهدي الله قوما كفروا** ﴾ إلى قوله: ﴿**إلا الذين تابوا** ﴾ فبعث بها قومه إليه، فلما قرئت عليه قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أكذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة" فرجع تائبا، فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾٩٠

قال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفرا يعني: ذنوبا في حال كفرهم.

قال مجاهد: نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، ثم ازدادُوا كفرا أي: أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه .

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾٩١ يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن عبد الله بن جُدْعان ،وكان يُقْري الضيفَ، ويَفُكُّ العاني، ويُطعم الطعام :هل ينفعه ذلك؟ فقال: لا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِن الدَّهْرِ:رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي يوم الدِّينِ

قال الإمام أحمد:حدثنا حجَّاج، حدثني شُعْبَة، عن أبي عمران الجَوْني، عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ:فَيَقُولُ:نَعَمْ . قَالَ:فَيَقُولُ:قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أبيك آدَمَ ألا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إلا أَنْ تُشْرِكَ »[19]

وقال الإمام أحمد:حدثنا رَوْح، حدثنا حَمَّاد، عن ثابت، عن أنس قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ ؟ فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ ، خَيْرُ مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ:سَلْ وَتَمَنَّ . فَيَقُولُ:مَا أَسْأَلُ وَلا أَتَمَنَّى إلا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مِرَار – لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ:يَا ابْنَ آدَمَ ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ ؟ فَيَقُولُ:يا رَبِّ شَرُّ مَنْزِلٍ . فَيَقُولُ لَهُ:تَفْتَدِي مِنِي بِطِلاعِ الأَرْضِ ذَهَبًا ؟ فَيَقُولُ:أَيْ رَبِّ ، نَعَمْ. فَيَقُولُ:كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فيُرَد إلى النَّارِ » .

وقال قطرب: هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا. فأنزل الله تعالى: « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم »

فلا يستطيع أحد أن يأتي بملء الأرض ذهباً، وحتى لو تم اجتياز المألوف:﴿ **فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**﴾

﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّـهَ بِهِ عَلِيم**﴾٩٢

روى شبل عن أبي نجيح عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يبتاع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى" فقال سعد بن أبي وقاص: فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىتُنفِقُوامِمَّاتُحِبُّونَ**﴾ فأعتقها عمر رضي الله عنه. وروي عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خيثم قالت: كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطي السائل سكرا، فإن الربيع يحب السكر. قال سفيان: يتأول قوله جل وعز: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾ . وروي عن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها. فقيل له: هلا تصدقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلي فأردت أن أنفق مما أحب. وقال الحسن: إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

[19] أخرجه البخاري ومسلم

وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال: لقيت أبا ذر قال: قلت: حدثني قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده " . قلت: وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلا فبعيرين، وإن كانت بقرا فبقرتين[٢٠]

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾٩٣

أخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «جاء اليهود فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئاً يداويه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرمها قالوا صدقت".

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿**إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه**﴾ قال: حرم العروق، ولحوم الإبل، كان به عرق النسا فأكل من لحومها، فبات بليلة يزقو، فحلف أن لا يأكله أبداً

---

[٢٠] أخرج مالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله ان الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وان أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ ذاك مال رابح. ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله؟ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه

وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بني سليم قال: جاورت أبا ذر بالربذة، وله فيها قطيع إبل. له فيها راع ضعيف فقلت: يا أبا ذر الا أكون لك صاحباً أكنف راعيك، واقتبس منك بعض ما عندك، لعل الله أن ينفعني به؟ فقال أبو ذر: إن صاحبي من أطاعني، فأما أنت مطيعي فأنت لي صاحب وإلا فلا. قلت: ما الذي تسألني فيه الطاعة؟ قال: لا أدعوك بشيء من مالي إلا توخيت أفضل.

قال: فلبثت معه ما شاء الله، ثم ذكر له في الماء حاجة فقال: ائتني ببعير من الإبل، فتصفحت الإبل فإذا أفضلها فحلها ذلول، فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته، وأخذت ناقة ليس في الإبل بعد الفحل أفضل منها، فجئت بها فحانت منه نظرة فقال: يا أخا بني سليم خنتني. فلما فهمتها منه خليت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل، فاخذت الفحل فجئت به فقال لجلسائه: من رجلان يحتسبان عملهما؟ قال رجلان: نحن... قال: اما لا فأنيخاه، ثم اعقلاه، ثم انحراه، ثم عدوا بيوت الماء فجزئوا لحمه على عددهم، واجعلوا بيت أبي ذر بيتاً منها ففعلوا.

فلما فرق اللحم دعاني فقال: ما أدري أحفظت وصيتي فظهرت بها، أما نسيت فاعذرك؟ قلت: ما نسيت وصيتك ولكن لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها، فهممت بأخذه فذكرت حاجتكم إليه فتركته فقال: ما تركته إلا لحاجتي إليه؟ قلت: ما تركت إلا لذلك قال: أفلا أخبرك بيوم حاجتي؟ إن يوم حاجتي يوم أوضع في حفرتي، فذلك يوم حاجتي.

إن في المال ثلاثة شركاء: القدر لا ينتظر أن يذهب بخيرها أو شرها، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم يستفيئها وأنت ذميم، وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكونن أعجز الثلاثة فلا تكونن مع أن الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وأن هذا المال مما أحب من مالي فأحببت أن أقدمه لنفسي "

وأخرج عبد بن حميد عن أبي محلز في قوله: ﴿**إلا ما حرم إسرائيل على نفسه**﴾ قال: إن إسرائيل هو يعقوب، وكان رجلاً بطيشاً، فلقي ملكاً فعالجه، فصرعه الملك، ثم ضرب على فخذه، فلما رأى يعقوب ما صنع به بطش به فقال: ما أنا بتاركك حتى تسميني اسماً. فسماه إسرائيل، فلم يزل يوجعه ذلك العرق حتى حرمه من كل دابة

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال: حرم على نفسه لحوم الأنعام.

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس، أنه كان يقول: الذي حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد، والكليتين، والشحم، إلا ما كان على الظهر. فإن ذلك كان يقرب للقربان فتأكله النار.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء ﴿**إلا ما حرم إسرائيل**﴾ قال: لحوم الإبل وألبانه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: نزلت التوراة، بتحريم الذي حرم إسرائيل، فقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾ وكذبوا ليس في التوراة، وإنما لم يحرم ذلك إلا تغليظاً لمعصية بني إسرائيل بعد نزول التوراة ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾ وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم: كان موسى يهودياً على ديننا، وجاءنا في التوراة تحريم الشحوم، وذي الظفر، والسبت. فقال محمد صلى الله عليه وسلم: «كذبتم لم يكن موسى يهودياً، وليس في التوراة إلا الإسلام».

روى جُويبر ومقاتل عن الضحاك: أن يعقوب كان نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولدًا وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم فتلقاه مَلك من الملائكة فقال: يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع، فعالجه فلم يصرعْ واحدٌ منهما صاحبَه فغمزه المَلك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك، ثم قال له: أمَا إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحًا ذبحت آخر ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجًا، فلما قدمها يعقوب أراد ذبح ولده ونسي قول المَلكِ فأتاه المَلكُ وقال: إنما غمزتك للمخرج وقد وُفي نذرُك فلا سبيل لك إلى ولدك .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو: وكان رجلا بطيشًا قويًا فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب، ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه، فهاج به عرق النسا ولقي من ذلك بلاءً وشدةً وكان لا ينام بالليل من الوجع، ويبيت وله زقاء، أي: صياح، فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقًا ولا طعاما فيه عرق، فحرمه على نفسه، فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق يخرجونها من اللحم.

﴿**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ ٩٤ الذين يظلمون أنفسهم.

الباب الثالث عشـــر

مرجعية البيت الأول

في هذه المرحلة من حديث الله تبارك وتعالى مع رسوله، يُبيّن له أصل عبادة الله التي لايُستثنى منها أحد من خَلقه، والذي يكفر، لايكفر بنبي، أو بكتاب فحسب، بل يكفر بالله بشكل عام، فلايكون له دين بعد دين الله سوى الضلال.

لنصغ مع رسول الله ما الذي يخبره به رب العالمين، بعد أن بيّن له كل تلك البيّنات لتكون سنداً له في رسالته:﴿**قُلْ**﴾ للكفار والمشركين يا محمد :﴿**صَدَقَ اللَّـهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾٩٥ تعالوا جميعاً لنعود إلى أبينا إبراهيم الذي ما كان يُشرك بالله الذي تُشركون به، وليكن هو الحَكَم بيني وبينكم، ونتخذ ملته مرجعاً لنا:﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾٩٦

ورد في الصحيحين من حديث النبي: « أنه أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق السماوات والأرض زبدة بيضاء فدحيت الأرض من تحته »

وفي في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال: " المسجد الحرام " . قلت: ثم أي؟ قال: " المسجد الأقصى " . قلت: كم بينهما؟ قال: " أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل " .

وقيل أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾

رُوي عن علي بن الحسين: أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتًا وهو البيت المعمور، وأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا في الأرض بيتا على مثاله وقدره، فبنوا واسمه الضراح، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

ورُوي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام، وكانوا يحجونه، فلما حجه آدم، قالت الملائكة: بر حجك يا آدم حججنا هذا البيت قبلك بألف عام.

وبكة، من أسماء مكة، ويُحتمل أن يكون الموضع الذي بُني فيه البيت في مكة، فتقتصر التسمية على مساحة البيت من عموم مكة، وبكة، إشارة إلى البكاء، فالناس في هذا البيت يبكون، حتى الجبابرة، فإنهم يبكون أمام هذا البيت.

﴿**فِيهِ**﴾ البيت ﴿**آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ مثل الحجر الأسود، وزمزم، وما يحتوي من مشاعر،

كذلك عدم قدرة الطير أن تعلو البيت،

يقول النبي فيما روي عنه: « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »

﴿**مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ﴾الحجر الذي قام عليه عندما بنى البيت﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾فمن آيات هذا البيت أن الذي يدخله يكون في أمان، من مختلف الأزمان، حتى في جاهلية العرب، ولم يقتصر ذلك على الإنسان فقط، بل

على الحيوان أيضاً، فإذا طاردت الجارحة صيداً، ودخل الصيد الحرم، تركته في شأنه وانصرفت عنه، وكذلك فإن الطير تطير حوله، بيد أنها لاتعلوه.

ذكر الحسن البصري وغيره:": كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة، ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج.. وفي لفظ مسلم في الصحيحين، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه.".

﴿وَلِلَّـهِ﴾حق الله ﴿عَلَى النَّاسِ﴾الناس جميعاً بمن فيهم اليهود والنصارى، وغيرهم، دون أن يقتصر ذلك على المسلمين، ذلك أنه ليس أول بيت للمسلمين، أو اليهود، أو النصارى فحسب، بل هو:﴿ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾جميعاً من بني آدم﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾زيارة هذا البيت الذي بناه إبراهيم وابنه اسماعيل، حتى يتواصل حاضر الناس مع ما ضيهم، ولاينفصل الإنسان عن جذوره، فغدا حق الله على الناس زيارة البيت الأول الذي بناه أبوهم إبراهيم، هذا البيت الذي يتفرّد دون غيره بكل هذه المزايا. ورأفة من الله بالعباد، فلم يجعل ذلك تعجيزياً على الناس الذين لامقدرة لديهم، سواء أكانت مقدرة مالية، أو مقدرة صحية، أو ما من شأنه أن يحول بين الإنسان وبين الحج، فيكون راغباً بالحج، بيد أنه لايجد إليه سبيلاً، فقال الله رأفة بالناس:﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

ففي هذا البيت يجد الناس بركات الله، و الطاعة والصدقة فيه تُضاعف بمائة ألف.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ من كفر من سائر الناس بهذا البيت، دون أن يؤمنوا بحق الله هذا على عموم الناس: ﴿فَإِنَّ اللَّـهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾٩٧ فجاء﴿العالمين﴾ كتأكيد بأن الحج هو للعالمين جميعاً، وباب بيت إبراهيم مفتوح لأبنائه وحفدته جميعاً كي يؤمنوا بما جاء به أبوهم، ثم يحجوا بيته، وهذا حق الله عليهم.

﴿قُلْ﴾ أخبرهم يامحمد بأنني أقول لهم:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّـهِ وَاللَّـهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾٩٨ ﴿قُلْ﴾ أخبرهم بأنني أنا رب العالمين أقول لهم:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّـهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾٩٩

لعلهم لايكتفون بالصدّ عن سبيل الله وابتغاء الاعوجاج في أنفسهم فحسب، بل يسعون إلى استدراج المؤمنين إلى ما هم عليه من ضلال، وهنا يخبر الله رسوله كي يخبر المؤمنين بأن ربكم يقول لكم :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾١٠٠

فهذا شكل من أشكال الحسد الذي يكنه الكافرون للمؤمنين، فلايعجبهم أن يلبثوا في فضل الله سبحانه وتعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ البقرة:١٠٩

يُروى أن زيد بن أسلم قال : إن شاسَ بن قيس اليهودي – وكـان شـيخا عظـيم الكفـر شـديد الطعـن علـى المسلمين – مرَّ على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفـتهم وصـلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، قال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهـذه الـبلاد لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شابا من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكـرهم يومَ بُعاثٍ وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعاث يومًـا اقتتلـت فيـه الأوس مع الخزرجِ وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل وتكلم فتكلم القوم عند ذلك فتنـازعوا وتفـاخروا حتـى تواثب رجلان من الحيّين على الرُّكَب، أوسَ بن قبطي أحد بني حارثة من الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثم قال أحدهِما لصاحبه: إن شئتم والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعا وقالا قد فعلنا السلاحَ السلاحَ موعدكم الظاهرة، وهي حرة فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضـها إلى بعـض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معـه مـن المهاجرين حتى جاءهم. فقال صلى الله عليه وسلم: يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهـركم بعـد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟ ترجعـون إلى مـا كنـتم عليـه كفـارًا، الله الله !! فعرف القوم أنها نـزغُة من الشيطان وكيدٌ من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين فأنـزل الله تعالى فيهم هذه الآية .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّـهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾وهذا تغليظ لهم :﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّـهِ﴾يجعل الله مرجعاً له ويتمسك بمرجعيته الإلهية :﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾١٠١هذه العصمة تضعه على الصراط المستقيم الذي يوصله إلى رضى الله.

يُـروى أن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم قـال يومـا لأصـحابه:« أيُّ الْمُـؤمِنِينَ أعْجَـبُ إلَـيْكُمْ إيمَانًـا؟ » قالوا:الملائكة. قال: « وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُـمْ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ؟! » وذكـروا الأنبيـاء قـال: « وَكَيْـفَ لا يُؤْمِنُـونَ وَالْوَحْيُ يَنـزلُ عَلَيْهِمْ؟ » قالوا: فنحن. قال: « وَكَيْـفَ لا تُؤْمِنُـونَ وأنَـا بَـيْنَ أظْهُـرِكُمْ؟! » . قالوا:فـأيّ النـاس أعجب إيمانًا؟ قال: « قَوْمٌ يَجِيئونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا » .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ فالانسان عندما يؤمن، يـدعوه الله كـي يتقـي الله في إيمانـه حـق تقاته، لأن التقوى تُعزز الإيمان في النفس، وتجعل المؤمن يمارس سلوك الإيمان.

ويُروى عن سبب نزول هذه الآية أنه "كان بين الأوس والخزرج عداوة في الجاهلية وقتال حتى هـاجر رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بـن زرارة من الخزرج، فقال الأوسي: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة، ومنا عاصم بـن ثابت بن أفلح حميُّ الدبر، ومنّا سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن ورضي الله بحكمه في بني قريظة.

وقال الخزرجي: منّا أربعة أحكموا القرآن: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بـن ثابـت، وأبـو زيـد، ومنّـا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشـعار وتفـاخرا، فجـاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فأنـزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ "[٢١]

والتقوى هنا تكون بمقدار الاستطاعة، لأن الإنسان قد لايستطيع أن يتقي الله حق تقاته،

وقد تحدّث البعض مع النبي عن مشقة ذلك، فخفف الله عن المؤمنين وأنزل:﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن ١٦وبذلك فقد نسخت آية التغابن، هذه الآية في آل عمران، وقيل أنه ليس في آل عمران من المنسوخ إلاّ هذا.

﴿**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾١٠٢ على دين الاسلام، إن هذا التخفيف يأتي من بـاب رأفـة الله بعبـاده، وهو لايجيز ارتكاب الذنوب، لكن أوجد الله تعالى لك برحمته مخرجاً من التهلكة، إن

اضطررتَ إلى ارتكاب حدٍ من حدود الله غير باغ ولا عـاد، فـإن اسـتطعت الطاعـة، وارتكبـتَ الإثـم، مـع الاستطاعة كان ذلك عليك، وإن لم تستطع الطاعة، وارتكبت الإثم مع عدم استطاعتك، كان ذلك لك برخصـة الله في موقفك الاستثنائي الطارئ الذي وجدتَ نفسك فيه ولاحول لك ولاقوة فيه إلاّ بالله.

[21] ذكره مقاتل بن حيان

الباب الرابــع عشـــر

حبل الله

حبل الله، هو صراط الله المستقيم، وهو النجاة، فإن كنتم جماعة في سفينة، ثم غرقت هذه السفينة، وجاءت طائرة تمدّ إليكم حبلاً، فإن هذا الحبل ينجيكم من الغرق، فالناس هنا هم غرقى، وحبل الله هو الذي ينجيهم، وحبل الله يكمن في:﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّـهِ جَمِيعًا﴾ الاعتصام به، والتمسك بشكل جيد به، وأن تتأكد من مسك عيالك به بشكل جيد، ثم يؤكد الواحد على الآخر إن كان قد أمسك به بشكل جيد خشية السقوط ليس في البحر هنا، بل في النار

عندما يقع أمر ما ولايرضى الناس عنه، فإنهم يعبرّون عن إدانتهم لهذا الأمر بالاعتصام، أي أنهم يجمعون على رأي واحد في وقفتهم الاعتصامية، فهم يعتصمون، أي يجمعون على رأي واحد، ويتفقون على موقف واحد.

رُوي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمةٌ لمن تمسّك به ونجاةٌ لمن تبعه »

فنقيض الاعتصام، هو التفرقة، فقال الله نظير أمره بالاعتصام :﴿وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ كون التفرقة هي نفيض الاعتصام،من هنا يمكننا أن نستجلي بأن حبل الله هو نجاة الله، ونجاة الله هو هديه، وهدي الله هو القرآن ، وتكاتفكم مع بعضكم البعض هو قوة لكم، وتشتتكم عن بعضكم البعض هو وهن لكم .

ورد في الأثر« إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا وأن تُناصِحوُا من وَلّى اللهُ أمرَكم، ويسخط لكم: قِيْلَ وقال، وإضاعةَ المال وكثرةَ السؤال » .

يقول مسعود رضي الله عنه : " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مستقيما ، وخط خطوطا على يمينه ، وخطوطا على شماله فقال للخط المستقيم : هذا سبيل الله .وللخطوط عن يمينه وشماله : هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه"[٢٢]

[٢٢]روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذي: هذا حديث صحيح. وأخرجه أيضا عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه سلم: " ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتي أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة " قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: " ما أنا عليه وأصحابي" . أخرجه من حديث عبدالله بن زياد الإفريقي، عن عبدالله بن يزيد عن ابن عمر، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال أبو عمر: وعبدالله الإفريقي ثقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعفه آخرون. وأخرجه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ألا إن مَن قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة وإنه سيخرج من أمتي أفواج تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله " . وفي سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض"

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾١٠٣

قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره من أهل الأخبار: كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعتْ بينهما عداوةٌ بسبب قتيل، فتطاولت تلك العداوة والحربُ بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عز وجل ذلك بالإسلام وألف بينهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفا يسميه قومه الكامل لجَلَدِهِ ونسبه، قدم مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بُعث وأُمر بالدعوة، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما الذي معك قال: مجلّة لقمان يعني حكمته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها علي فعرضها، فقال: إنَّ هذا لكَلامٌ حسن، معي أفضل من هذا قرآن أنزله الله عليّ نورًا وهدىً فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ منه وقال: إن هذا لقول حسن، ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل يوم بُعاث فإنَّ قومه ليقولون: قد قتل وهو مسلم.

ثم قدم أبو الحيسر أنس بن رافع ومعه فئة من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحِلْفَ من قريش على قوم من الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فجلس إليهم، فقال: هل لكم إلى خيرٍ مما جئتُم له؟ فقالوا: وما ذلك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئا، وأنزل علي الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزازَ نبيه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فلقي عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، وهم ستة نفر: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك العجلاني، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم: قال: أفلا تجلسون حتى أكلّمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرضَ عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

قالوا: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودًا كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وهم كانوا أهل أوثان وشرك، وكانوا إذا كان منهم شيء قالوا: إن نبيا الآن مبعوثٌ قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فلمّا كلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم

لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي تَوعَّدَكُم به يهود، فـلا يسـبقُنكُّم إليـه، فأجـابوه وصـدقوه وأسـلموا، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك، وسـنقدم علـيهم فندعوهم إلى أمرك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به صـلى الله عليـه وسـلم، فلمـا قدموا المدينة ذَكَرُوا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فـيهم فلـم يبـق دارٌ مـن دُور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتـى إذا كـان العـام المقبـل وافـى الموسـم مـن الأنصار اثنا عشر رجلا وهم: أسعد بن زرارة، وعوف، ومعاذ ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان، وذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعباس بـن عبـادة، وعقبـة بـن عـامر، وقطبـة بـن عـامر، وهؤلاء خزرجيّون وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن ساعدة من الأوس، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء، على أن لا يشركوا بالله شيئًا ولا يسـرقوا ولا يزنـوا، إلى آخـر الآية فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئًا من ذلك فأُخذتم بحدّه في الدنيا فهـو كفـارةٌ لـه، وإن سـتر علـيكم فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم، قال: وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب.

قال: فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويُفقهَهم في الدين، وكان مُصعب يُسمى بالمدينة المقرئ، وكان منـزله على أسعد بن زرارة، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطًـا، مـن حـوائط بـني ظفـر، فجلسـا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حُضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءَنا فازجرهما، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي ولولا ذاك لكفيتكه، وكـان سـعد بـن معـاذ وأُسَيْد بن حضير سَيِّدَيْ قومِهما من بني عبد الأشهل وهما مشركان، فأخذ أسيد بن حضـير حربتـه ثـم أقبـل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان في الحائط، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فأصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه قال: فوقف عليهما متشتّمًا فقال: ما جـاء بكـم إلينـا تسـفهان ضـعفاءنا؟ اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهتـه كُفّ عنك ما تكره، قال: أنصفتَ ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقـالا والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيـف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له : تغتسلُ وتُطهرُ ثوبَيك ثـم تشـهد شـهادة الحـق ثـم تصـلي ركعتين فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم قام وركع ركعتين ثـم قـال لهمـا: إنَّ ورائـي رجـلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثـم أخـذ حربتـه فانصـرف إلى سـعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسـيد بغـير الوجـه الذي ذهب من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمّـتُ الـرجلين فـوالله مـا رأيـت

بهما بأسًا وقد نهيتُهما فقالا فافعل ما أحببت، وقد حُدثتُ أن بني حارثـة خرجـوا إلى أسـعد بـن زُرارة ليقتلـوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضبًا مبادرًا للذي ذكر له من بني حارثـة، فأخـذ الحربـة ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهمـا فوقـف عليهمـا مَتشتمًا ثم قال لأسعد بن زرارة: لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكـره وقـد قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيد قومه، إن يتبعك لم يخالفك منهم أحد، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فـإن رضيت أمرًا ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عَزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصـفت، ثـم ركـز الحربـة وجلـس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام: قبل أن يتكلم به في إشراقه وتسـهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا تغتسل وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شـهادة الحق ثم تصلي ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامـدا إلى نادي قومه ومعه أُسَيْد بن حضير فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبةً قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قـال: فمـا أمسـى في دار بني عبد الأشهل رجلُ ولا امرأةٌ إلا مسلم أو مسلمة، ورجع أسعد بن زرارة ومصعب إلى منـزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسـلمون ونسـاء مسـلمات إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بـن الأسـلت الشـاعر، وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هـاجر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم إلى المدينـة ومضى بدرٌ وأُحد والخندق.

قالوا: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار من المسـلمين سـبعون رجـلا مـع حجـاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيـام التشـريق وهي بيعة العقبة الثانية.

قال كعب بن مالك – وكان قد شهد ذلك – فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صـلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم عمن معنا من المشـركين مـن قومنـا أمرنا فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عمّـا أنـت فيـه أن تكون حطبا للنار غدا، ودعوناه إلى الإسلام فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشـهد معنـا العقبة، وكان نقيبا، فبتنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبـة، ونحـن سـبعون رجـلا ومعنـا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي أم منيع إحدى نساء بني سلمة، فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العبـاس بـن عبـد

المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج – وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها – إن محمدًا صلى الله عليه وسلم منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍ ومنعةٍ.

قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت: فتكلمْ يا رسول الله وخذْ لنفسك ولربِّك ما شئت.

قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن مَعْرُور بِيدِهِ ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنَا فبايعنا يا رسول الله، فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر.

قال: فاعترض القول – والبراءَ يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم – أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا يعني العهود، وإنا قاطعوها فهل عسيتَ إن فعلنا نحن ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وأنا منكم أحاربُ من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم »فأخرجوا اثني عشر نقيبًا تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس.

قال عاصم بن عمرو بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عُبادة بن نَضْلة الأنصاري: يا معشر الخزرج هل تدرون علاما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خِزْيٌ في الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتُموه إليه من تهلكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: « الجنة » قال: ابسطْ يَدكَ فبسطَ يده فبايعوه، وأول من ضرب على يده البراء بن مَعْرُور ثم تتابع القوم، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعتُه قط: يا أهل الجباجب هل لكم في مُذَمَّمٍ والصُّباة قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عدو الله، هذا أزبّ العقبة، اسمع أي عدو الله أما والله لأفرغنّ لك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفضوا إلى رحالكم.

فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدًا على أهل منًى بأسيافنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم نُؤْمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جِلّةُ قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم قال: فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون لهم بالله: ما كان من هذا شيء وما علمناه وصدقوا، ولم يعلموا، وبعضُنا ينظر إلى بعض، وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا يا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش، قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلي وقال: والله لتنتعلنهما قال يقول أبو جابر رضي الله عنه: مه والله أحْفَظْتَ الفتى فاردد إليه نعليه، قال: لا أردهما فألٌ – والله – صالح والله لئن صدق الفأل لأسلبنه .

قال: ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدّدوا العقد، فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشا فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « إن الله تعالى قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون فيها » فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار.

فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرْسالا إلى المدينة فجمع الله أهل المدينة أوسها وخزرَجَها بالإسلام، وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَهُمُالْمُفْلِحُون﴾١٠٤

روى أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر؟ قال: « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم » . قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: « الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم »

و في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . وفي رواية: « وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

وقال الإمام أحمد:حدثنا سليمان الهاشمي، أخبرنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عَمْرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حذيفة بن اليمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ»[٢٣]

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾

[23] رواه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن

لايصبح أولئك قدوة لكم، فتقتدوا بهم لأنهم على ضلالة:﴿ وَأُولَـئِكَ لَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِـيمٌ ﴾١٠٥ في تنبيه بأنكم لو اقتديتم بهم سيكون لكم أيضاً مثلهم﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ يَوْمَ ﴾الحساب حيث﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾بما كانت عليه من هدي :﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾بما كانت عليه من ضلال :﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾الذين لاقوا ضلالهم وسوء أعمالهم بوجوه سوداء، يُقال لهم :﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أنكرتم إيمانكم بعد أن مَنّ الله عليكم به:﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾١٠٦وهذا هو العذاب العظيم الذي قالته الآية السابقة في نهايتها، إنه ليس عذاباً فقط، بل هو ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، كـون هـؤلاء كفـروا بعد أن عرفوا الله، وكأنهم استكبروا على الإيمان، ثم أن كفرهم بعد الإيمان من شأنه أن يُحدث فتنة وانشقاقاً في المؤمنين، فهذا الذي انشق وارتدّ عن الإيمان، قد يستجرّ غيره، ثم أنه قد يكون حجة لغيره، ولذلك فهـو يُجـازى بعذاب عظيم.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾الذين لاقوا إيمانهم، وحسنات أعمالهم بوجوه بيضاء:﴿فَفِي رَحْمَةِ﴾جنـات ﴿ اللَّـهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾١٠٧مستقرّون آمنون ليس بوسع أحد أن يُخرجهم منها، فهم أهلها، وقـد أعـدّها الله لهم، وأعدّهم لها، فهؤلاء أصحاب الوجوه البيضاء، ونسأل الله تعالى أن يمنّ علينا فنكون منهم برحمته

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّـهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾١٠٨هذا الكلام وإن كان يشـير في ظاهره إلى أن جبريل يُخبر النبي بأنه يتلو عليه آيات الله، إلاّ أن هذا الكلام بذاته أيضاً هو ليس لجبريـل، بـل هـو لله، فيستوي الأمر في قراءتك على النحو التالي: يقول الله لجبريل: قل ياجبريل لمحمد أن الله أمرني أن أخبرك بـأن ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّـهِ﴾بيّنات ومَلِكات الله﴿نَتْلُوهَا ﴾وكالة عن الله، وبأمر منه :﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾. فلو كان يريد ظلماً لهم، لما بيّن لهم الحق من الباطل، فأولئك الذين اسـودّت وجـوههم، هـم الـذين جعلوها سوداء بعد أن كانت بيضاء بما أنعم عليهم الله من نعمة الإيمان، فجنحوا إلى الكفر، وسـعوا إلى الشـقاق والفتنة في الناس، ثم أصرّوا على الكفر حتى أن ما توا على الكفر.

وقد مرّ معنا على هذا النحو كلام الله الموجه للناس على لسان عيسى عليه السلام ، عنـدما يخـاطبهم عيسـى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ﴾

فهذا الكلام يبدو في ظاهره بأنه كلام عيسى مع الناس، بيد أن الله تعالى يقول له: قل يا عيسى لهم:﴿أَنِّـي قَـدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّـهِ وَأُبْـرِئُ الأَكْمَـهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّـن رَّبِّكُـمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٥٠﴾ أي أطيعوا كلام الله الذي أتيتكم به

﴿وَلِلَّـهِ﴾واعلم يامحمد وقل للناس أن لله:﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾هو وحـده مالـك السـموات والأرض:﴿ وَإِلَى اللَّـهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾١٠٩حيث لايملك شيء ألاّ يرجع إليه، فعنده موازين الحساب بالحق، ولا أحد يُظلم في موازينه . فذلك هو حبل الله، فارجعوا إليه وأنتم تعتصـمون بحبلـه جميعـاً ، ولاترجعـوا إليـه وأنـتم تتفرقون وتتيهون دون الحبل.

الباب الخامس عشـــر
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿كُنتُمْ﴾بمعنى أنتم، وتتضمن إشارة بأنكم قد تتحولون من أنتم إلى ﴿كُنتُمْ﴾إن تخليتم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عندذاك سيقتصر:﴿كُنتُمْ﴾على أسلافكم فقط، أي كان سلفكم:﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ف أنتم :﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾بما:﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾تفعلون المعروف، حتى يتحوّل عمل المعروف إلى سنة فيكم، وهذه السنة تكون بمثابة الأمر، لأن الذي لايستن بسنة المعروف يكون قد مرد على أسس مجتمعه:﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾لأن الأمر بالمعروف يكتمل بالنهي عن المنكر، فإن أمرت بالمعروف، ثم اتبعت المنكر ولم تنته عنه، فإن ذلك يُصيب قاعدة أمرك بالمعروف خللاً، لأنك ستصبح مزدوجاً، ثم أنك ستكون حجة بيد الكفار ليحتجوا بما تقوم به من منكر، ويُظهروا هذه الازدواجية على أنها من المؤمنين، لأنك من المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف، فبذلك لاتستطيع أن تأمر بالمعروف، دون أن تنهى عن المنكر، كما أنك لاتستطيع أن تنهى عن المنكر دون أن تأمر بالمعروف، لأن إحداها لاتملك سوى أن تؤدّي إلى صنوّتها:﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ﴾لأن أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر يكتملا على مقدار إيمانك بالله، وهذا بذاته يشير إلى إيمانك بالله، لأنك تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر استجابة لأمر الله، وابتغاء مرضاته، فـ فيكم الخير، وأنتم خير أمم الأرض، ولكن هذا مرهون بمقدار ما ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ﴾، وهذا لايأتي على جميع أفراد المسلمين سواء، بل يقتصر – والله أعلم – على الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، لأن خير أمة، يعني أن أفراد هذه الأمة هم خير أفراد من أفراد الأمم الأخرى، ويكمن خيرهم بمقدار ما يقدّمون من نفع للناس، بمقدار ما يسنون للناس من سنن حسنة، بمقدار ما يتحوّلون إلى قدوة لأفراد الأمم الأخرى في العفاف، وصلة الرحم، والعلاقات الإنسانية، والتكاتف الإنساني، والمحبة، والتسامح، والصبر، والكرم، وبكل خصلة حميدة. وقد كان ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في أصحابه، والأمة هنا تضم أمة العرب، وأمة المسلمين، لأنك هنا لستَ أمام مزايا قوم بعينه، بل أنت أمام مزايا أمة الإسلام التي تؤمن بالقرآن، فمن دخل الإسلام، أصبح من هذه الأمة الإسلامية التي هي خير الأمم، لأن العروبة ليست بالضرورة مقترنة بالاسلام، فقد يكون المرء عربيا، بيد أنه لايدين بدين الإسلام، وقد لايكون المرء عربياً بيد أنه يدين بدين الاسلام، ولذلك ترى قوميات غير عربية بأكملها قد دخلت الإسلام، مثل الكرد، والفرس، والترك، والشيشان، والأفغان، وغير ذلك، ولعل أعداد هؤلاء تفوق أعداد العرب، فهم جميعاً يُشكلون أمة الإسلام التي هي :﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

في رواية للإمام أحمد يقول فيها:حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا شريك، عن سِماك، عن عبد الله بن عُمَيرة عن زوج دُرّةَ بنت أبي لَهَب، عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر، فقال:يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ فقال: « خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَؤُهُمْ وأتقاهم للهِ، وآمَرُهُمْ بِالمعروفِ، وأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ » .

وفي مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجة، ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم بـن مُعَاوية بـن حَيْدَة، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وأَنْتُمْ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ » .

كذلك يقول الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن، حدثنا ابن زُهَير، عن عبد الله – يعني ابن محمد بن عقيل– عن محمـد بـن علـي، وهـو ابـن الحنفية، أنه سمع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أُعْطِيتُ مَا لَـمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ » . فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال:« نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ » .

وقال الإمام أحمد:حدثنا أبو العلاء الحسن بن سَوَّار، حدثنا لَيْث، عن معاوية عن بن أبي حُلَيْس يزيد بن مَيْسَرَةَ قال:سمعت أم الدرداء، رضي الله عنها، تقول:سمعت أبا الدرداء يقول:سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، وما سمعته يكنيه قبلها ولا بعدها، يقول إنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: « يَا عِيسَى، إِنِّي بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً، إِنْ أَصَابَهُمْ مَـا يُحِبُّـونَ حَمِدُوا وشَكَرُوا، وإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا، وَلا حِلْمَ وَلا عِلْمَ ». قال:يَا رَبِّ، كَيْفَ هَـذَا لَهُـمْ، وَلا حِلْمَ وَلا عِلْمَ؟. قال: « أُعْطِيهِمْ مِن حِلْمِي وعلمي » .

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا المسعودي، حدثنا بُكَيْر بن الأَخْنَس، عن رجل، عن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًـا يَـدْخُلُونَ الْجَنَّـةَ بِغَيْـرِ حِسَابٍ ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ، عز وجَـلَّ، فَزَادَنِـي مَـعَ كُل وَاحِدٍ سبعين ألفًا » . فقال أبو بكر، رضي الله عنه: فرأيت أن ذلـك آتٍ علـى أهـل القـرى، ومصـيبٌ مـن حافات البوادي .

وقال الإمام أحمد:حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا هشام بن حسان، عن القاسم بنِ مهران، عـن موسـى بن عبيد، عن ميمون بن مهران، عن عبد الرحمن بن أبي بكر" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، بِغَيْرِ حِسَابٍ » . فقال عمر: يا رسول الله، فهلا استزدته؟ فقـال: « اسْـتَزَدْتُهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » . قال عمر: فهلا استزدته؟ قال: « قَدِ اسْـتَزَدْتُهُ فأعْطَـانِي هكَـذَا » . وفـرج عبد الله بن بكر بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، قـال هشـام: وهـذا مـن الله لا يـدرى مـا عدده .

فهذا لايكون لك لمجرد أنك من أمة الإسلام، لأنه تعالى لم يقف عند:﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾بل قـرن ذلك بـ:﴿ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ**﴾فإن كنت من أمة الإسلام، بيد أن شرط الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، لم يكن محققاً فيك، فإنك تكون مُستثنى من المسـلمين الـذين يتحقـق فيهم هذا الشرط . ثم انظر إلى قول ربك إثرئذٍ وهو يُخبر محمداً :﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ**﴾بما أنزلناه من القرآن

عليك يامحمد:﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾من الشرك والكفر، لأن الخير يكمن هنا بأن القرآن آتى ببيّنات تنقذهم من الضلال، وقد أتى لهم، وليس عليهم، فيقول رب العزة :﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾١١٠ فالفاسق هو الذي يتعمّد الحياد عن الحق، وهو يعلم بأنه الحق، بيد أنه يتعالى عليه بما في نفسه من فسق، ولذلك فهو ضعيف أمام الحق الذي يعلمه من الطرف الآخر، فيكون هذا بالنسبة إليه عامل ضعف، فيقول الله:﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾بكلمات بذيئة وسباب ونحوذلك من خلال اللسان، ثم:﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ ﴾بالسيف وأدوات القتال في الحرب:﴿يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ينهزمون، فأهل الفسق ليس لهم سوى الفساد بالقول، وإلحاق الأذى بالناس من خلال القال والقيل، وعندما يجدّ الجدّ فإنهم يولون الأدبار ويلوذون بالفرار :﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾١١١لاقولاً، ولا فعلاً، فإن نظرتَ إلى تاريخ أهل الإيمان والصلاح والمعروف ، ترى أن حياتهم تكللت بالانتصارات في شتى الميادين، وترى في محطات حياتهم مواقف الخير ، والحق ، والبطولة ، في حين إذا نظرت إلى تاريخ أهل الفسق والكفر والفجور، لاترى سوى الهزائم والجور والأذى. يُخبر الله رسوله :﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا ﴾أينما تواجدوا يكونون في ذل﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾بهدي من الله، وهدي الله كمن في القرآن، فإن اعتصم مَن اعتصم بحبل الله، استثناه الله من ضرب الذلة عليه.

في حديث الحارث الأعور، عن علي مرفوعا، بأن القرآن: « هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ » .

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ميثاق من الناس استناداً إلى حبل الله﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ لعل المسكنة تعني هنا أنهم لايُظهرون نعمة الله عليهم، فيُظهرون بأنهم فقراء، وهم في واقع الأمر أغنياء، فترى حبهم الشديد للمال دون أن يُظهروا على أنفسهم آثار الغنى، في حين أنك لاتجد هذه المسكنة عند المسلمين لأنهم يعلمون ويعملون بأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولذلك فإنك ترى آثار النعمة لدى المسلمين في حين أنك لاتراها لدى غير المسلمين رغم أنهم قد يكونون أغنى من المسلمين، ثم إذا نظرنا إلى اليهود، سنرى بأنهم أغنياء حقاً، لكننا نرى فيهم ضرب المسكنة بكونهم لايملكون دولة وهم يقفون على تاريخ عريق، والتوراة سبيقت الإنجيل والقرآن، ورغم ذلك، فإنهم لايملكون دولة واحدة أصغر من كثير من قرى، أو ضواحي بعض الدول، في حين أن المسلمين والنصارى يملكون قرابة سائر الأرض بكل ما فيها من مساحات شاسعة، وهضاب، ومحيطات، وجبال، وغابات:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾١١٢

بيد أن هذا لايكون عاماً، بل هو للذين يتحقق فيهم الفسوق، فنرى أن الله تعالى يستثني مرة أخرى لرسوله:﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾هذا الحديث ليس عليهم سواسية يامحمّد، بل:﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾١١٣ثم لننظر إلى هؤلاء كيف يساويهم الله لنبيّه بالمسلمين، وكيف يثني عليهم ، وهو يخبره برضاه عنهم بقوله:﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾١١٤ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّـهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾١١٥ فالإدانة هنا لاتكون للأشخاص، بل هي لأفعال الأشخاص، كما أن الثناء لايكون للأشخاص، بل في أفعال الأشخاص، سواء أكانوا من المسلمين أتباع القرآن، أو من الكتابيين أتباع التوراة، أو الإنجيل.

روي أنه لما أسلم عبد الله بن سلاّم وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود: لقد كفرتم وخسرتم، فأنزل الله تعالى لبيان فضلهم هذه الآية، قال الثوري: بلغني أنها نزلت في قوم كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء، وعن عطاء: أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾مهما كان انتماؤهم، كون﴿الَّذِينَ﴾تشمل الناس جميعاً، بمعنى أن الناس﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّـهِ شَيْئًا﴾ذلك أن الله غني عن الناس، والناس ليسوا أغنياء عن الله ﴿وَأُولَـئِكَ﴾الذين كفروا هم:﴿ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾١١٦فذلك محصول كفرهم

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾كون الإنفاق ليس لوجه الله تعالى، بل هو من باب الاستعلاء والتباهي والكِبر :﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾بالنسبة لتفسير كلام الله، ليس دائماً يكون المعنى اللغوي مطابقاً، فأحياناً عليك أن تتجاوز المعنى الظاهري للغة إلى المعنى الباطني لها وما يتفرّع عن ذلك من مدلولات من خلال ربط الكلمات مع بعضها البعض سواء صون الآية الواحدة، أو الآيات التي تسبقها، أو تعقبها. من هنا فيمكن أن يكون الصر هو أزيز الريح، بمعنى الريح الشديد التي تصرّ، أي تئز، ويمكن أن تكون هذه الريح علاوة على ذلك تحمل برداً شديداً، أو حرّاً شديداً، فإذن الصوت هو ليس صوت نسيم عليل، بل هو صوت باعث على الفزع، والحرارة ليست دفئاً طيباً، بل هي حارقة، أو البرد غير المنعش، بل الصقيعي. فانظر إلى وجه التقارن بهذه الريح مع ذاك الذي ينفق ماله ليلحق الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم، أوبأصحابه، رضوان الله عليهم، أو بأهل العلم، أو بعامة المسلمين في كل زمان ومكان. فكما أن هذه الريح﴿فِيهَا صِرٌّ﴾فذاك المال فيه صر . إن هذا المال:﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾لم تصب زرع قوم عدلوا مع أنفسهم : ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾وهنا تصوير يمكنك أن تتصوّره، فتنظر إلى زرع، ثم إلى ريح بتلك المواصفات، وقد سلّطها الله على ذاك الزرع الذي نعود ملكيته لظالمين، فذلك هو حاصل المال الذي يُنفق في غير سبيل الله:﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّـهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾١١٧ لأنهم هم الذين جلبوا تلك الريح التي فيها صر إلى زرعهم .

الباب السادس عشـــر

بطانـــة الســـوء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾البطانة من البطن، والبطن من الباطن، والذي تتخذه بطانة لك، تخوّله أن يستبطنك، أي يعرف ما في باطنك، وليس هذا فحسب، بل يوجهك ويقودك ويديرك، ولاشك أن رب البيت، وهو مدير شؤونه، وولي أمره، يترك أثراً على جميع مّن في البيت، كونه كبيرهم وموجههم ووليهم، ولذلك فإن ولي الأمر يترك أثراً على عموم الناس في ولايته .

يقول الحافظ أبو يعلى:حدثنا إسحاق بن إسرائيل، حدثنا هُشَيم، حدثنا العَوَّام، عن الأزهر بن راشد قال:كانوا يأتون أنَسًا، فإذا حَدَّثهم بحديث لا يدرون ما هو، أتَوا الحسن – يعني البصري– فيفسره لهم. قال:فحدَّث ذات يوم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ، ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا فلم يدروا ما هو، فأتوا الحسن فقالوا له:إن أنسا حَدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: » لا تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ الشِّركِ ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا فقال الحسن:أما قوله: « ولا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرَبيا :محمد صلى الله عليه وسلم. وأما قوله: » لا تَسْتَضِيؤوا بِنَارِ الشِّركِ « يقول:لا تستشيروا المشركين في أموركم. ثم قال الحسن:تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ .

هنا نرى كيف أن الله يبيّن لهم أسباب الصلاح، وأسباب الفساد، فبطانة الكفر تدعو إلى الكفر، وبطانة الإيمان تدعو إلى الإيمان:﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾من دون المؤمنين، أي لاتتخذوا من الكافرين أولياء لكم:﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾لايترددون من إفسادكم .

روى البخاري، والنسائي، وغيرهما، من حديث جماعة، منهم:يونس، ويحيى بن سعيد، وموسى بن عقبة، وابن أبي عتيق ، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِي وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَة إلا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ:بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخيرِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَم اللهُ » .

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾العناء، أي المشقة، فهؤلاء يودون لكم المشقة﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ فكما أن المودة تظهر من خلال الكلام، فأيضاً تظهر البغضاء، يُخبر الله المؤمنين بأن ما في صدورهم من البغضاء لكم لهو أعظم مما يظهر على أفواههم .

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾١١٨ في سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل "

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾إنهم لايبادلونكم الحب بالحب، لأنهم لايؤمنون بالقرآن:

﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾أنتم﴿ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ما في القرآن، وما قبله :﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا ﴾كذباً﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ عنكم: ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾الغيظ هو الغضب والاستياء، فمن شدّة الغيظ ، عضوا على أصابعهم: ﴿ قُلْ﴾لهم يا محمّد، وليقل لهم المسلمون:﴿ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾١١٩ ولأنه عليم بذات الصدور، فهاهو يعلّمكم ما لاتعلموا ما بذات الصدور.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾لأنهم يشعرون بأنكم تزدادون قوة وتوحداً بها:﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾لأنهم نظير ذلك يشعرون بأن السيئة من شأنها أن تُضعفكم، وتفرّقكم :﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾فالصبر والتقوى من أشكال المواجهة، لأن حكمة الله تجلو للإنسان وهو يصبر ويحتسب، فحتى كيد الكائدين لايضرّ المؤمن شيئاً إن استعان بالصبر والتقوى على ما يلقى من مصائب:﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ١٢٠

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾خرجت من بيتك الذي فيه أهلك، فالرجل عندما يكون عازباً ويعيش في بيت لوحده، يُقال له: خرجت من بيتك، لكنه عندما يكون مع زوجته وأبنائه، يقال له: خرجت من أهلك، أي من بيتك الذي فيه أهلك، فقد خرجتَ عنهم وتركتهم في البيت دونك. ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم غدا من بيت عائشة، ومشى على قدميه إلى أحد . وهذه شهادة من الله تعالى بأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذن، قد خرج النبي لواقعة أحد، وغدوت هي أقرب إلى الصباح ، أي خرج صباحاً من أهله، والله يراه ويقول له :﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾يا محمّد إلى أحد:﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾تبيّن لهم أماكنهم ومراكز قياداتهم، ووقعة أحد كانت يوم السبت من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة كما يُروى، ويُقال لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من شَوَّال، كما عند قتادة، والنصف من شوال كما عند عِكْرِمة، والله أعلم.

ويُروى – وفق إخراج مسلم – أن المشركين قصدوا المدينة في ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم في يوم بدر" فنزلوا عند أحد على شفير الوادي بقناة مقابل المدينة، يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهرا من الهجرة، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أن في سيفه ثلمة، وأن بقرا له تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة" فتأولها أن نفرا من أصحابه يقتلون، وأن رجلا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة المدينة.

وقيل أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوْمَ بَدْر، وسَلمَت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سُفْيان، فلما رجع قفَلُهُم إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقي لأبي سفيان:ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريبًا من أحد تِلْقاء المدينة، فصلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ الجمعة، فلما فَرَغَ منها صَلى على رجل من بني النجار، يقال له:مالك بن عَمْرو، واستشار الناس:أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أُبيّ بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحْبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرا بالخروج إليهم، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمَتَه وخرج عليهم، وقد نَدم بعضهم وقالوا:لعلنا استكرَهْنَا رسولَ الله صلى الله

عليه وسلم، فقالوا:يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إِذَا لَبِسَ لأمَتَه أنْ يَرْجِعَ حَتى يَحْكُمَ اللهُ لَه » .

فسار، عليه السلام في ألف من أصحابه، فلما كان بالشَّوط رجع عبد الله بن أبيّ في ثُلُث الجيش مُغْضَبا" لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه:لو نعلم اليوم قتالا لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم.

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا حتى نزل الشِّعْب من أُحُد في عَدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: « لا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حتى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » .

وتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أخا بني عَمْرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلا فقال لهم: « انْضَحُوا الخَيْلَ عَنَّا، وَلا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ. والْزَمُوا مَكَانَكُمْ إنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أوْعَلَيْنَا، وإنْ رَأيْتُمُونَا تَخَطَّفُنا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » .

﴿وَاللَّـهُ سَمِيعٌ ﴾سميع لكل ما يُقال﴿عَلِيمٌ ﴾١٢١عليم بكل ما يجري

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّـهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾١٢٢

قال البخاري:حدثنا عليّ بنُ عبد الله، حدثنا سفيان قال:قال عَمْرو:سمعت جابر بن عبد الله يقول:فينا نزلت: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال:نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سَلَمة.

وما نحب أنها لم تنزل" لقول الله عز وجل: « والله وليهما » . وقيل: هم بنو الحارث وبنو الخزرج وبنو النبيت، والنبيت هو عمرو بن مالك من بني الأوس. وقيل: كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله نبيه عليه السلام عليه فازدادوا بصيرة" ولم يكن ذلك الخَوَرُ مكتسبا لهم فعصمهم الله، وذم بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطل على المشركين، وكان خروجه من المدينة في ألف، فرجع عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلاثمائة رجل مغاضبا" إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال في المدينة إن نهض إليهم العدو، وكان رأيه وافق رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبى ذلك أكثر الأنصار، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فاستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة. قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة، ومن الأنصار سبعون رضي الله عنهم. وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد، ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس. وفيها جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة من على رأسه صلى الله عليه وسلم، وكان الذي تولى ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن قميئة الليثي، وعتبة بن أبي وقاص. وقد قيل: إن عبدالله بن شهاب جد الفقيه محمد بن مسلم بن شهاب هو الذي شج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جبهته. قال الواقدي: والثابت عندنا أن الذي رمى في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ابن قميئة، والذي أدمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص. قال الواقدي بإسناده عن نافع بن جبير قال: سمعت رجلا من المهاجرين

يقول: شهدت أُحُدا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك يصرف عنه. ولقد رأيت عبدالله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع! خرجنا أربعة فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك. وأكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط في حفرة، كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخر عليه السلام على جنبه واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدم، وتشبثت حلقتان من درع المِغْفَر في وجهه صلى الله عليه وسلم فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما بثنيتيه فسقطتا" فكان اهْتم يزينه هَتَمُه رضي الله عنه.

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّـهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّـهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾١٢٣واقعة بدر، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى الموضع الذي وقعت فيه هذه الواقعة يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان، بعد نحو سنة ونصف من الهجرة، وهو موقع يقع بين مكة والمدينة ويُروى أنه اسم بئر هناك لرجل من جهينة اسمه بدر.

فقد نصرهم الله تعالى وهم﴿أذلة﴾ بمعنى أقل عدداً من العدو ، حيث كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر، في حين كان عدد العدو يتراوح بين التسعمائة والألف. وكذلك لم يكونوا بمستوى النصر، بيد أن الله تعالى منّ عليهم بنعمة النصر، فغدوا أعزّة بنصر الله لهم، ولايصبح الإنسان عزيزاً في أمر من أموره، إلاّ بنصر الله له.

فهذا فضل من الله يخص به مَن يشاء من عباده، وهي بذات الوقت دعوة أن يعمل المرء صالحاً حتى يجعل نفسه أهلاً لنصر الله في كل شيء، لأن النصر هو عملية تكاملية، وإلاّ لكان نصراً ناقصاً، فأي نصر ناقص إن انتصرت على عدو لك، ثم انهزمت أمام سطوة نفسك عليك، وأي شجاعة تكون عليها عندما تضعف أمام شهوة، أو مال، أو جاه، فتكون في درجات سفلى من الجبن حتى لو وقفت موقف شجاعة بيّنة في وقت مضى، فالتقوى هي الجسر الذي يبلغ بك مقام شكر الله، والتقوى هي نصرن ويتكلل نصرك هذا بمقدار شكرك لله، لأن الشكر هو إيمان وتواصل مع الله

ثم يخاطب الله محمداً صلى الله عليه وسلم : يامحمد:﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾١٢٤يقاتلون إلى جانبكم: ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾١٢٥

نرى هنا تكرار الصبر والتقوى، لِما لهما من فضل، فقد أوفى الله بعهده معهم عندما صبروا واتقوا ، لأن إمدادهم يعني أنهم صبروا واتقوا ، ثم إضافة إلى زيادة العدد إلى خمسة آلاف، فقد قال: ﴿مُسَوِّمِينَ ﴾ وهذه الميزة لم تكن موجودة سواء في الألف الأولى التي وردت في سورة الأنفال بقوله :﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾الأنفال٩ أو في زيادة الألف إلى ثلاثة آلاف هنا .

قال الحسن: وهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءُ المؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يـوم بـدر، وفيمـا سـوى ذلـك يشـهدون القتـال ولا يقاتلون، إنما يكونون عددًا ومددًا.

وقيل: "إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه: أن يمـدَّهم أيضًـا في حـروبهم كلهِّا فلم يصبروا إلا في يوم الأحزاب، فأمدّهم الله حتى حاصروا قُريظة والنضير، قال عبد الله بن أبي أوفى: كنا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله فلم يُفتح علينا فرجعنا فدعا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بغسْـلٍ فهـو يغسل رأسه إذْ جاءه جبريل عليه السلام، فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكـة أوزارهـا؟ فـدعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضـير فيومئـذ أمـدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح لنا فتحا يسيرا" .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّـهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾فهذه بشرى للمؤمنين بأن الله لايتخلى عنهم، وبذلك فإنهم يشعرون بطمأنينة:﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾١٢٦تكمن الطمأنينة هنا بأن الذي عنده النصر هو الذي يُبشّر المطمئنين، فلا قوة تفوق قوة الله، ولاشيء لايخضع ولا يضعف ولايستجيب لمشيئة العزيز الحكـيم .

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾١٢٧الطرف، الجزء، فيقطع الله بذلك عنكم جزءاً من قوة الكفار، فيصبحوا في خيبتهم بقوتهم التي تخذلهم بمشيئة العزيز الحكيم، كي تطمئن قلوبكم وأنـتم ارونـه رأي العين.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـالِمُونَ﴾١٢٨ لعـل المـراد هنـا: لاتعجـل في حكمك على مجريات الأمور، فنحن نعلم، ولنا حكمة فيما نفعل. وقيل أن هذه الآية:" نزلت في أهل بئـر معونـة، وهم سبعون رجلا من القراء، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر معونة في صفر سنة أربع مـن الهجـرة على رأس أربعة أشهر من أُحد ليُعلّموا الناس القرآن والعلمَ أميرهم المنذر بن عمـرو، فقتلـهم عـامر بـن الطفيـل فَوَجَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وَجْدًا شديدًا، وقنت شهرًا في الصلوات كلها يدعو علـى جماعـة من تلك القبائل باللّعن والسّنين فنـزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ﴾.

ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا على بعض الكفار، ثم تاب الله عليهم، فأصبحوا من أعمدة الإسلام، فلو قبل الله دعاء النبي، لما كان ذلك، وثمة رواية عن الإمام أحمد يقول فيها:"حدثنا أبو النَّضْـر، حـدثنا أبـو عقيـل – قال أحمد:وهو عبد الله بن عقيل، صالح الحديث ثقة– قال:حدثنا عُمَر بن حمزة، عـن سـالم، عـن أبيـه قال:سمعـت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هِشام، اللهم العـن سُـهَيلَ بـنَ عَمْرو، اللهم العن صَفْوانَ بْنَ أُمَيَّةَ » . فنـزلت هذه الآية: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فَتِيبَ عليهم كلّهم .

وقال البخاري:حدثنا حِبّان بن مُوسى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، حدثني سالم، عن أبيه:أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر "اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا وفُلانًا " بعد ما يقول: " سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمد " فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وورد في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: " كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى " فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ . قال الضحاك: هَمَّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المشركين فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ . وقيل: استأذن في أن يدعو في استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيسلم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.

ولعلنا نرى في ذلك درساً لعامة الناس وهو عدم التدخل في خلق الله، وأن ما هو مطلوب من الإنسان أن يثبت على الحق، ويدعو إليه، فإن الذي تراه اليوم جائراً، قد يهديه الله غداً، ويصلح به شأناً، وليس هذا فحسب، بل يُشكّل انشقاقاً ووهنا في زمرة الجور التي خرج عنها، ويشكّل قوة وثباتاً للزمرة التي اهتدى إليها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾فذلك شأن الله، وليس شأن الخَلق، مهما كان هذا الخلق، وهو بذاته الإلهية﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾١٢٩دون أن تكون له مرجعية، أو يستشير أحداً، فالأمر يصدر منه بشكل مطلق، دون أن يكون لأحد أن في الأمر تدخل بأي شكل من الأشكال، أو أي حجم من الأحجام، سبحان الله :

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾البقرة١١٧

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾النحل٤٠

الباب السابـع عشـــر
مغفرة الله

في الباب الماضي رأينا كيف أن الله تعالى يعلّم رسوله، مما جعل الرسول أكثر معرفة بربه، ولأن الله خصه كي يكون رسوله إلى عباده، فإن الرسول يقوم بإبلاغ هذه البيّنات للناس، هذا البيّنات التي أصلحت له شأنه أولاً، ثم تصلح لعموم المؤمنين شأنهم، كون أي مؤمن يشعر – والحال هذه– بأن القرآن نزل عليه من خلال الرسول، لأنه نزل على الرسول الإنسان، من أجل الإنسان. بهذه العمومية نبدأ هذا الباب بقوله تعالى للنبي كي يخاطب عامة المؤمنين ويبلغهم بأن الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾١٣٠ ثم:

﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾١٣١

فهاهي أنوار الله وبركاته تحل للمؤمنين وهو يبيّن لهم سبل الظفر بهذه الأنوار والبركات التي ليست حكراً لأحد على أحد، بل هي لعامة عباد الله الذين يؤمنون به. وما السبيل إلى طاعة الله سوى الاستجابة لِما يبلغهم رسول الله عن الله، هذا الرسول الذي اصطفاه الله تعالى منهم كي يبلغهم بيّناته، فكيف تطيع الله إن لم تستجب لأمره الذي حمله إليك رسوله، فيقول الله:﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾١٣٢

﴿**وَسَارِعُوا** ﴾دون تأجيل:﴿**إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾لأن لاشيء يستحق تأجيل المغفرة التي لها الأولوية في كل شيء:﴿ **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾١٣٣

﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ**﴾أموالهم﴿ **فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾عندما يكونوا في يسر، وكذلك عندما يكونوا في عسر ، فعندما يكونون في يسر ينفقون الكثير، وعندما يكونون في عسر ينفقون ما باستطاعتهم، حتى لايلبثوا على تواصل في الانفاق في سبيل الله :﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**﴾وهذه دعوة للإنسان كي يتحَّصن في مواجهة بعض أشكال الاستفزاز، فلا يخرج عن طوره، بل يتحّلى بالصبر، ويكون قادراً على كظم غيظه، وهذه علامة من علامات النضوج الإنساني، فلايكون متسرعاً سواء في قراراته، أو في الانفعال نتيجة موقف طارئ واجهه، وعليه أن يكون متمكناً من التمسك بزمام نفسه حتى لاتخرج عن طوره. يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " رأيت قصورا مشرفة على الجنة ، فقلت : ياجبريل لمن هذه ؟

قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس " .

فانظر هنا إلى موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل أراد أن يستفزه، فعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أدركه أعرابي فأخذ بردائه فجبذه جبذة شديدة حتى نظر إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فضحك وأمر له بعطاء [٢٤]

[٢٤] البخاري الفتح، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك (٥١٩/١٠) رقم (٦٠٨٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظه (٧٣٠/٢-٧٣١) رقم (١٠٥٧).

﴿ وَالْعَـافِينَ عَـنِ النَّـاسِ﴾الـذين يتجـاوزون للنـاس عـن حقـوقهم ابتغـاء مرضـاة الله:﴿ وَاللَّـــهُ يُحِـبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾١٣٤وهذا يدخل في باب الاحسان إلى الناس من خلال العفو عنهم، وإسقاط حقوقهم عنهم لوجـه الله تعالى، والله يحب هؤلاء الذين يتبعون في حياتهم هذا المنهج في الإحسان إلى الناس.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾لم يقنطوا مـن رحمـة الله ومغفرتـه فنـدموا و:﴿ذَكَـرُوا اللَّـــهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾فأحسنوا الظن بالله الغفور الرحيم :﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّـهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾١٣٥لأن عـدم الاسـتغفار، يعـني الاصـرار علـى الـذنب والاسـتمرار فيـه، وهـذا هـو العنـاد، والاستكبار. أمّا :﴿ أُولَـئِكَ﴾الذين استغفروا الله لذنوبهم:﴿ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾١٣٦

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾السنن هي سِيَر الناس ورواياتهم، وما وقع معهم، وقد تجلّت حكمة الله في ذاك التاريخ الإنساني، فيدعو الله إلى عدم القطيعة مع ذلك التاريخ الإنساني، بل العودة إليه وأخذ العبر والعظـة منـه وذلك من خلال قوله لعامة النـاس:﴿ فَسِيرُوا فِـي الْـأَرْضِ فَـانظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَـذِّبِينَ ﴾١٣٧ و: ﴿ فَانظُرُوا ﴾أي لاتكونوا كالمكذبين كي لاتكون عاقبتكم كعاقبتهم.

إذن:﴿ هَـذَا بَيَانٌ﴾من رب الناس يا محمد أبلغه :﴿ لِلنَّـاسِ﴾﴿ وَ﴾يكمـن في هـذا البيـان:﴿هُـدًى وَمَوْعِظَـةٌ لِلْمُتَّقِينَ)١٣٨

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾لاتستسلموا لِما لحق بكم من الخسائر في جهادكم، وقد قُتل خمسة مـن المهـاجرين في هذا الجهاد منهم :**حمزة بن عبد المطلب ومصعبُ بن عُمير، كما قُتـل مـن الأنصـار سـبعون رجـلا، إضـافة إلى الجرحى، ولعل ذلك يكون بمثابة العزاء من الله للمؤمنين في تلك الواقعة فـ : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَـا تَحْزَنُـوا﴾**بمثابـة المواساة والحض على عدم اليأس، فيقول جل ثناؤه عقب ذلك:﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾١٣٩قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشّعب فأقبل خالد بن الوليد بخيـل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوةَ لنـا إلا بك وثابَ نفرٌ من المسلمين رماةٌ فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله تعـالى: ﴿ وَأَنـتُم الأعْلَوْنَ ﴾

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾وهذه إشارة بأن العودة إلى التاريخ تكون مجدية حتى يُـدرك الإنسان المؤمن بأن ما يمسسه من قرح قد:﴿ مَسَّ الْقَوْمَ ﴾الذين سبقوه :﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾

وانظر إلى بديع جماليات التعبير الإلهي في الآيات الثلاث التالية التي ينشرح لها الصدر، وتنتشـي بهـا الـنفس، ويرطب بها اللسان، وتذوّق لذة قراءتها معي جملة واحدة :﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ الَّـذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾١٤٠

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾١٤١

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّـهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾١٤٢

اعد ذلك مرتين، وثلاث، وما تشاء، ثم تعال أشرحها لك : ﴿وَتِلْكَ﴾هكذا تمتلك الكلمة الأولى مقدرة على فتح آفاق المخيلة وهي تحمل من الشاعرية ما تحمل، ومن العذوبة ما تحمل : ﴿وَتِلْـكَ﴾ الوقائع والحروب والأحداث والانتصارات، والهزائم التي تكمن في تلك﴿ الْأَيَّامُ ﴾الغابرة التي عاشها أجدادكم :﴿نُدَاوِلُهَا﴾ويالبديع العبارة مبنى ومعنى وهي تأتي من الله للإنسان، نحن الله﴿نُدَاوِلُهَا﴾ أي نكررها الآن، وسنكررها في القادم، التداول، بمعنى الانتشار، فأن يتداول الناس أمراً، يعني أنه يجري فيهم، ويكون حديث الساعة بالنسبة إليهم :﴿بَيْنَ النَّاسِ ﴾أي يكون الناس هم محاور﴿تلك﴾والتي ستصبح في الحاضر هذه الأحداث، بما تحمل من انتصارات للبعض، وانكسارات لبعض آخر ، ولذلك لايجوز أن تقتطع هذه الآيات، لأنك ستسأل عن الحكمة من تكرار ذلك في الناس، فتقول لك الآية:﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾فهذه الوقائع تُغربل الناس لتُظهر معادنهم، وفي ذروة هذه الأزمات تظهر هذه المعادن، ويقوم الناس بفرز أنفسهم بأنفسهم ، فترى فئة الشجعان، وترى فئة الجبناء، وترى فئة الكرماء، وترى فئة الصابرين، وترى فئة المنافقين، وترى فئة المتخاذلين، وتريك تلك الأحداث في أوجها ما تريك :﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾١٤٠ثم :﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾١٤١فكيف يُجازى الناس دون أن يقدموا الخير، أو يقدّموا الشر، والميزان الذي يقف عليه الإنسان هو الميزان الذي يبيّن خير الإنسان وشرّه .

فانظر إلى حشود من الصابرين ما كان لهم أن يصبحوا صابرين لو لم يبلهم الله، وإلى العادلين، إلى المنفقين، إلى الذاكرين، إلى الحافظين فروجهم ، إلى المجاهدين، إلى الشهداء، ثم انظر إلى مَن هم نقيض أولئك، حينها تُدرك شيئاً من معنى قول ربك وأنت تعود إلى الآيتين السابقتين لتقرأهما بتمهل وتدبر وتفكّر أكثر: ﴿وَتِلْـكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾١٤٠

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾١٤١

ثم تستأنف الآية الثالثة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّـهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾١٤٢

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾أنكم تدخلوا الجنة دون أن تكونوا أهلاً لها بما قدّمتم في سبيل دخولها، وإلاّ فما الفرق بينكم وبين الذين لايدخلونها، فإذن،: تلك الأيام التي يداولها الله بين الناس هي التي تفرّق بين هؤلاء، وبين هؤلاء.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾١٤٣

قال أصحاب المغازي :خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نـزل بالشّعب من أُحـد في سـبعمائة رجـل، وجعل عبد الله بن جُبير وهو أخو خَوات بن جبير على الرّجالة وكانوا خمسين رجلا وقال: أقيمـوا بأصـل الجبـل وانضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، فإن كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم حتـى أرسـل إلـيكم فإنّـا لـن نـزال غالبين ما ثبتم مكانكم فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهـل ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله صلى الله عليـه وسـلم سيفا فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن، فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصـاري فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنها لَمشيةٌ يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع، ففلق به هام المشركين وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم".

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّـهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّـهُ الشَّاكِرِينَ ﴾١٤٤

يروي البغويعن البراء بن عازب أنه قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خَلاخِلهنَّ وأسوقهن رافعاتٍ ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمـة والله لنـأتينّ النـاس فلَنُصـيبنّ مـن الغنيمـة فلمـا أتـوهم صـرفت وجوههم.

وقال الزبير بن العوام: فرأيت هندًا وصواحباتها هاربات مصعدات في الجبل، باديات خدامهنّ ما دون أخذهن شيء فلما نظرت الرماة إلى القوم قد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب.

فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسـلمين بالغنيمـة، ورأى ظهـورهم خاليـة صـاح في خيلـه مـن المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزمـوهم وقتلـوهم، ورمـى عبـد الله بـن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورَباعيتـه وشـجه في وجهـه فأثقلـه وتفـرق عنـه أصـحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة يعلوها، وكان قد ظاهر بين درعين فلـم يسـتطع فجلـس تحتـه طلحه فنهض حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أوجَبَ طلحةُ » ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والأنـوف حتـى اتخـذت هنـد مـن ذلك قلائد، وأعطتْها وحشيًا وبقرتْ عن كبدة حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها، وأقبل عبـد الله بـن قمئة يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم فذبَّ مُصعب بن عمير – وهو صاحب راية رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله ابن قمئة، وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فرجع إلى المشركين وقال: إني قتلت محمدًا وصاح صارخٌ ألا إنّ محمدًا قد قتل، ويقال: إن ذلـك الصـارخ كـان إبليس، فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو النـاس: « إلـي عبـاد الله ﴿ إلـيَّ عبـادَ الله ﴾ فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فَحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى انـدقتْ سـية قوسـه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته، وقال له: إرم فداك أبـي وأمـي، وكـان أبـو طلحـة رجـلا راميًـا

شديدا النـزع كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، وكـان إذا رمى أشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله فيبسـت حـين وقَـى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حين وقعت على وجنته، فردهـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم مكانها، فعادت كأحسن ما كانت. »

فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركه أبي بن خلف الجمحي، وهو يقـول: لا نجـوتُ إن نجـوتَ فقال القوم: يا رسول الله ألا يعطف عليه رجل منّا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: دعوه حتى إذا دَنَا منه وكان أُبـي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: عندي رمكة أعلفها كل يوم فَرْقَ ذُرة أقتُلُكَ عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما دنا منه تناول رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه فخدشةً خدشة فتدهدأً عن فرسـه وهـو يخـور كمـا يخـور الثور، ويقول: قتلني محمد، فأخذه أصحابه وقالوا: ليس عليك بأس قال: بلى لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومُضـر لقتلتهم، أليس قال لي: أقتلك؟ فلو بزق عليّ بعد تلك المقالة لقتلني، فلم يلبث إلا يوما حتى مات بموضـع يقـال له سَرِف.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنـا عمـرو بن علي، أنا أبو عاصم، عن ابن جريج عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا قـال: اشتدّ غضبُ الله على من قتله نبي واشتدّ غضبُ الله على من دَمىَّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا: وفشا في الناس أن محمدًا قد قُتل فقال بعض المسلمين: ليتَ لنا رسولا إلى عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم، وقال أناس مـن أهـل النفـاق: إن كـان محمـدا قـد قتـل فالحقوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك: يا قوم إن كان قتل محمد فـإن ربَّ محمـد لم يُقتـل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقاتلوا على ما قاتـل عليـه رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ومُوتُوا على ما مات عليه ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعني المنافقين، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عـرف رسـول الله صـلى الله عليه وسلم كعب بن مالك، قال عرفتُ عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صـوتي: يـا معشـر المسـلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إليّ أن اسكتْ فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهـم الـنبي صلى الله عليه وسلم على الفِرار فقالوا: يا نبي الله فديناك بآبائنا وأُمهاتنا، أتانا الخبرُ بأنك قد قُتلت فرُعبت قلوبنا فولّينا مدبرين فأنـزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾

وقال ابن أبي نَجيح، عن أبيه، أنّ رجلا من المهاجرين مَر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال له:يا فلان أشعرتَ أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قُتِل؟ فقال الأنصاري:إن كان محمد صلى الله عليه وسلم قد قُتِل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾[25]

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّـهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾وهذا لدفع الخوف من الموت عن المسلمين﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾مَن يريد الدنيا دون الآخرة، ويُفضل ثواب الدنيا على ثواب الآخرة:﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ثم :﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ﴾يفضل ثواب الآخرة على ثواب الدنيا :﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾١٤٥

﴿ وَكَأَيِّن ﴾وكم﴿مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾أناس ﴿كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّـهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾١٤٦

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾قول الذين قاتلوا مع الأنبياء وآزروهم وسمّاهم الله تعالى ربيين :﴿إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾١٤٧

فَآتَاهُمُ اللَّـهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾١٤٨

فهؤلاء أنعم الله عليهم بحسن ثواب الآخرة، ولم يحرمهم أيضاً ثواب الدنيا

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾أن تتبعونهم، يجعلوكم أتباعاً لهم و:﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾١٤٩ خاسرين إيمانكم الذي منّ الله تعالى به عليكم وأخرجكم به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

﴿ بَلِ اللَّـهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾١٥٠ إنما النصر المؤزر هو نصر الله

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّـهِ ﴾عندما عزم المشركون على العودة إلى المسلمين في أحد لينالوا منهم ، ألقى الله في قلوبهم الرعب فمنعهم من ذلك ، وهذا شكل آخر من أشكال نصر الله للمؤمنين إضافة إلى مدّهم بالملائكة وقيام الملائكة بأنفسهم بالقتال إلى جانبهم بشكل مباشر .

وروي أن أبا سفيان صعد الجبل، وقال: أين ابن أبي كبشة، وأين ابن أبي قحافة، وأين ابن الخطاب، فأجابه عمر، ودارت بينهما كلمات، وما تجاسر أبو سفيان على النزول من الجبل والذهاب إليهم، ويروى أن الكفار عندما ذهبوا إلى مكة قالوا وهم في طريقهم: ما صنعنا شيئاً، قتلنا الأكثرين منهم، ثم تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم.

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي:نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »

[25] رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة

وروى الإمام أحمد:حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي بُرْدَة، عن أبيه أبـي موسـى قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أُعْطِيتُ خَمْسًا:بُعِثْتُ إِلَـى الأَحْمَـرِ وَالأَسْـوَدِ، وَجعلَـتْ لِـيَ الأَرْض طَهُورًا ومَسْجِدًا، وأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِم وَلَمْ تَحِل لِمَنْ كَانَ قَبْلِـي، ونُصِـرْتُ بِالرُّعْـبِ شَـهْرًا، وأُعْطِيـتُ الشَّـفَاعَةَ، وَلَيْسَ مِنْ نَبِيّ إلا وَقَدْ سَأَل شَفَاعَتَهُ، وإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا » .

﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾السلطان، من السلطة، وسلطان الدولة هو واليها الذي يمتلك السلطة عليهـا، وهنـا يكون السلطان بمثابة البرهان الذي يسبب لهم الرعب، فهو رعب لايعلمون سلطانه، أو مصدره، حيـث يرتعبـون دون أن يعلموا سببا لهذا الرعب، وهذا ما يزيدهم رعباً، لأنهم إن علموا المصدر، كان ذلك بمثابة تخفيـف عـنهم كونهم سيسعون إلى علاجه:﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾١٥١

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّـهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِمَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَـنكُمْ وَاللَّـهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٥٢

ورد في روايتَي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسـلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال. وفي رواية عن سعد: عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد. يعني جبريـل وميكائيـل. وفي روايـة أخـرى: يقـاتلان عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال ما رأيتهما قبـل ذلـك اليـوم ولا بعـده. وعـن مجاهـد قـال: لم تقاتـل الملائكة معهم يومئذ، ولا قبله ولا بعده إلا يوم بدر. قال البيهقي: إنما أراد مجاهد أنهـم لم يقـاتلوا يـوم أحـد عـن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به. وعن عروة بن الزبير قال: وكان الله عـز وجـل وعـدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسـومين: وكـان قـد فعـل" فلمـا عصـوا أمـر الرسـول وتركوا مصافهم وتركوا الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألا يبرحوا من منازلهم، وأرادوا الدنيا، رفع عنهم مدد الملائكة، وأنزل الله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾

ثم تأتي الآية التالية مستأنفة توثيق هذه الوقائع حتى تبقى شاهدة أمام الناس جميعاً ويتخذوا منها العبر، فيقـول الله تبارك وتعالى:﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾حينما صعد بعض المسـلمين في أحـد بعـض المرتفعـات في هزيمة دون أن يلتفتوا لأحد﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِـي أُخْـرَاكُمْ ﴾والرسـول ينـاديكم بـالعودة بعـد أن تركتمـوه خلفكم وتركتم المعركة﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾

هذه الكلمات الثلاث تحتمل أوجهاً عديدة من التفسير، فالثواب هو جزاء العمل الحسن، بيد أنـه هنـا مخـالف لأصله، لأنه قال:﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فأي غمٍ هو الأول ، وما هو الغم الثاني. لأن غم المسـلمين كثـر في أحـد، وهـذا يذكرنا بغم الكفار في بدر عندما انتصر المسلمون عليهم، فيُحتمل أن يعني الله: غمكم في هزيمتكم في أحد، نظـير

غم الكفار في بدر، وذلك حتى تتذوقوا حلاوة النصر، عندما واصلتم الجهـاد ، وأيضـاً تتجرعـوا مـرارة الهزيمـة، عندما انهزمتم وتركتم الرسول خلفكم، فترتبت على ذلك أعداد قتلاكم وشهداءكم ، وخسائركم المادية، وهنـا يمكنني أن أقول بأن الثواب الذي جاء كتعبير عن العقاب، يمكن استخلاص الخير منه كونـه وقـع علـى المسـلمين وفيه حكمة، فيستوي القول بأن الثواب هنا حمل إلى المسلمين عقاباً محمّلاً بالحكمة.

قال ابن عباس:الغم الأول:بسبب الهزيمة، وحين قيل:قتل محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، والثـاني:حين علاهـم المشركون فوق الجبل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أنْ يَعْلُونا » .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: الغم الأول القتل والجراح، والغـم الثـاني الإرجـاف بقتـل الـنبي صـلى الله عليـه وسلم" إذ صاح به الشيطان. وقيل: الغم الأول ما فاتهم مـن الظفـر والغنيمـة، والثـاني مـا أصـابهم مـن القتـل والهزيمة. وقيل: الغم الأول الهزيمة، والثاني إشراف أبي وسفيان وخالد عليهم في الجبل" فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم" فعنـد ذلـك قـال الـنبي صـلى الله عليـه وسلم: " اللهم لا يعلن علينا " .

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾فهذا يشير بأن الغم حمل لهم حكمة لكيلا يحزنوا على ما فاتهم من الغنائم، ولا ما أصابهم من الخسائر﴿وَاللَّـهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾١٥٣لايخفى عليه ما تعملون .

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾

﴿مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾يعني أن الغمّ أصبح بالنسبة إليهم﴿بعد﴾ فقد جاوزهم الله إياه، ﴿ثُـمَّ أَنـزَلَ﴾علـيهم﴿أَمَنَـةً نُّعَاسًا﴾كلمة﴿أَمَنَةً﴾تبدو رقيقة أكثر من كلمة الأمن التي قد لاتتلاءم مع الكلمة التي تليها﴿نُّعَاسًـا﴾فـالأمن قـد يدفع إلى الحيوية واليقظة والابتهاج والتحرّك بحرية، في حين أن﴿ أَمَنَةً﴾التي فيها شفافية وسكينة، تقدّم بتاء تأنيثها – التي أضافها الله إلى الأمن لتتحول الكلمة بها من المذكر إلى المؤنث – حالة من الاسترخاء الآمن، لأن الإنسان لايشعر بالاسترخاء إلاّ إذا أحس بالطمأنينة ، وقـد وردت الكلمـة في واقعـة بـدر قبـل ذلـك عنـدما وصـف الله المؤمنين بقوله :﴿إِذْ يُغَشّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مّنْهُ﴾ الأنفال ١١ ويظهر هنا أن النعاس سبق الأمنة لأنهم خرجـوا مـن انتصار ، بينما في أحد سبقت الأمنة النعاس، لأنهم مُنيوا بالهزيمة .

لننظر إلى كيفية نزول الأمنة النعاس على المؤمنين في أحد ، وذلك من خلال بعض الذين شـاركوا في المعركـة، وعاشوا حالة الأمنة . روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحـد، قـال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه.

ويقول عبد الرحمن بن عوف: ألقى النوم علينا يوم أحد.

هذه الأمنة لم يخصها الله سبحانه وتعالى جميع الذين شاركوا في معركة أحد، بـل خصـها الطائفـة المسـلمة الـتي جاءت للقتال في سبيل الله ، لأن البعض كان قد جاء ليس للدفاع عـن الإسـلام، بـل مـن أجـل الحصـول علـى الغنائم، وهم بعض المنافقين الذين كانوا يسعون لإحداث الخوف للمسـلمين وهـم في صـفوفهم القتاليـة في هـذه

الهزيمة. يصف الله هذه الطائفة المنافقة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ **وانظر هنا إلى تحليل النفس البشرية:﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾**فالنفس تعاقب صاحبها المنافق المُزدَوَج الذي يكون بوجهين، فهي تجعله قلقاً مضطرباً ، والنفس لاتكون مستقرة ولاتقدم الاستقرار لصاحبها إلاّ إذا كان طبيعياً يقف في شأنه على موقف واحد لايتزحزح فيه، لأن الثبات يعني الهدوء والسكينة، ومنهما تأتي الأمنة ومن الأمنة ينثر النعاس نسمته على النفس البشرية، والنعاس هو ذروة مراحل الاستقرار الإنساني، والنعاس بذاته هو متعة مفعمة بطمأنينة النوم، وطمأنينة اليقظة. فانظر إلى همّ هؤلاء في هذه الرواية التي يقول فيها الزبير: "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف، فأرسل الله علينا النوم، وإني لأسمع قول معتب بن قشير، والنعاس يغشاني يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا".

ثم انظر وصف الله لهم:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾نرى بأن الله الذي سمع قولهم، قد أتى بهذا القول ليشهد عليهم، ثم بيان الله وهو يأمر نبيه في هذه الآية الطويلة أن يقول للمنافقين في ردّ الله عليهم :﴿ **قُلْ** ﴾لهم يامحمد :﴿**إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ثم يخص كلامه للنبي وهو يخبره بأن المنافقين :﴿ **يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ** ﴾يا محمد :﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا** ﴾ينقل الله قولهم الثاني أيضاً، ويردّ عليه بقوله:﴿ **قُل** ﴾لهم يا محمد :﴿**لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ**﴾ليمتحن﴿ **اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ** ﴾ليُظهر للعيان :﴿**مَا**﴾تخفونه:﴿ **فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾﴿**وَ**﴾هذا إثبات بأن :﴿**اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾١٥٤

﴿ **إِنَّ** ﴾المسلمين المقاتلين﴿**الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ**﴾أداروا لكم ظهورهم وتركوكم في ساحة المعركة﴿**يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾ **الجيشان، جيش المسلمين، وجيش المشركين في معركة أحد، حيث فرّ أغلب المسلمين من المعركة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوحده مع عدد قليل، نحو أربعة عشر رجلاً** ، وقيل: إن بعضهم ورد المدينة وأخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل، وهو سعد بن عثمان، ثم ورد بعده رجال دخلوا على نسائهم، وجعل النساء يقلن: "عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرون"! وكن يحثين التراب في وجوههم ويقلن: هاك المغزل اغزل به، ومنهم قال: إن المسلمين لم يعدوا الجبل.

قال القفال: والذي تدل عليه الأخبار في الجملة أن نفرا منهم تولوا وأبعدوا، فمنهم من دخل المدينة، ومنهم من ذهب الى سائر الجوانب، وأما الأكثرون فإنهم نزلوا عند الجبل واجتمعوا هناك. ومن المنهزمين عمر، الا أنه لم يكن في أوائل المنهزمين ولم يبعد، بل ثبت على الجبل الى أن صعد النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم أيضا عثمان انهزم مع رجلين من الانصار يقال لهما سعد وعقبة، انهزموا حتى بلغوا موضعا بعيدا ثم رجعوا بعد ثلاثة أيام، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :لقد ذهبتم فيها عريضة . وقالت فاطمة لعلي: ما فعل عثمان؟ فنقصه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا علي أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا" وأما الذين ثبتوا مع الرسول صلى الله

عليه وسلم فكانوا أربعة عشر رجلا، سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، فمن المهاجرين أبو بكر، وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام، ومن الانصار الخباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحرث بن الصمة وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ.

وثمة رواية للإمام أحمد يقول فيها : "حدثنا معاوية بن عَمْرو، حدثنا زائدة، عن عاصم، عن شقيق، قال:لقي عبدُ الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد:ما لي أراك جفوتَ أمير المؤمنين عثمانَ؟ فقال له عبد الرحمن:أبلغه أني لم أفر يوم عَيْنَيْن – قال عاصم:يقول يوم أحد– ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سُنة عمر. قال:فانطلق فَخَبر ذلك عثمان، قال:فقال:أما قوله:إني لم أفر يوم عَيْنَيْن فكيف يعَيرني بذَنْب قد عفا الله عنه، فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ** ﴾ وأما قولُهُ:إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أمرض رقَيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم، ومن ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهم فقد شهِد. وأما قوله: « إني لم أترك سنَّة عمر » فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك" .

يستمر حديث الله تعالى للنبي عن هذه الواقعة، فيروي له الله بقوله:﴿ **إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ** ﴾استدرجهم بوسوسته لهم ، ولبث يزنّ عليهم حتى أوقعهم في الهزيمة، وقد استند الشيطان في وسوسته لهم مرة تلو المرة إلى عدم ثباتهم على تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم :﴿**بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** ﴾من مخالفة أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يقود المعركة بنفسه، فرأى في هذه المخالفة منفذاً له إليهم. ثم يخبر الله رسوله كي يُبشرهم بعفو الله عنهم بقوله: ﴿**وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾١٥٥

الباب الثامــن عشـــر
التوكـــل علـــى اللـــه

في هذه المرحلة من السياق الروائي للسورة، نقف أمام أهمية التوكل على الله الذي له الأمر من قبل ومن بعد، وأن المؤمن يكون مؤمناً بقدر ما يوكل أمره لله.

هنا علينا أن نستعيد كل ما مرّ بنا في أبواب هذه السورة، في وقفة تأمل وتدبر، ثم نشرع في الولوج في هذا الباب الذي يبدأ بقول عز من قائل:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾لاتكونوا كالمنافقين الذين كفروا بنفاقهم :﴿ **وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ** ﴾لمن هم مثلهم، فهم ينتسبون إلى بعضهم البعض في أخوة النفاق :﴿**إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ**﴾سافروا في الأرض سواء للتجارة، أو لغرض آخر استدعى السفر :﴿ **أَوْ كَانُوا غُزًّى**﴾أو شاركوا في الغزوات :﴿ **لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا** ﴾. هذا تنبيه من الله للمؤمنين بألاّ يتبنوا ما يقوله المنافقون عن المجاهدين الذين يضربون في الأرض، أو يشاركون في الغزوات:﴿**لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾لأن في هذا القول إحباط للعزيمة، وتحطيم للمعنويات، والمؤمن هو الذي يؤمن بأن الحياة والموت بيد الله، وهذا ما يحقق له حرية سواء في السفر من أجل العمل، أو الذهاب إلى الجهاد في سبيل الله، في حين أن المنافق لايتحقق له ذلك، لأنه يبقى أسير الإضطراب والهواجس، والتكهنات. نرى هنا بأن الإيمان يحقق للمؤمن حالة متقدمة للتحرر من هذه الإرهاصات

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض...﴾ الآية. قال: هذا قول عبدالله بن أبي بن سلول والمنافقين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿**لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**﴾ قال: هذا قول الكفار إذا مات الرجل يقولون: لو كان عندنا ما مات فلا تقولوا كما قال الكفار.

﴿ **لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ**﴾الانطلاق الحقيقي نحو الحياة :﴿ **حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾فهم يكتشفون بأنهم على خطأ، وهذا الاعتقاد الخاطئ حرمهم مزايا كثيرة في الحياة، أولها: الحرية، فقد قيدهم ذاك الاعتقاد، وجعلهم قليلي الحركة، أو جامدين لايتحركون إلاّ ضمن دائرة صغيرة في مساحة جغرافية محدودة، مثل أنهم يمضون أعمارهم في قرية واحدة دون أن يخرجوا منها، ودون أن يتقلّبوا في مراحل الحياة، وخوض صراعاتها. في حين يقدم المؤمنون على ذلك ويسجلون في محطات حياتهم، مواقف بطولية وهم ينظرون إلى طلاقة المؤمنين ، فهم يرغبون في ذلك الانطلاق الحقيقي المتحرر نحو الحياة ليقدّموا مواقف بطولية في الحياة، بيد أن الله يجعل :﴿**ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾وما يزيد هذه الحسرة حسرة على حسرة في قلوبهم أن الله يحسم هذا الأمر بقوله:﴿**وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾والحسرة التي أضيفت إلى حسرتهم مع بيان الله هذا، هو الجبن، وفقدان الشجاعة، فهم باتوا يعلمون بأن الله هو الذي يحيي ويميت، وليس بوسع أحد كائناً مّن كان أن يتولى ذلك عن الله، ورغم ذلك فهم يُجبنون ويتمسكون بقولهم:﴿**لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا**﴾. لهذا، فإن الله ينهى المؤمنين أن يحذوا حذو المنافقين مثل

عبد الله بن أُبي وأصحابه في مذهبهم هذا، حتى يتجنبوا تلك العواقب التي تترتب على ذاك المذهب:﴿وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾١٥٦

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّـهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾١٥٧ فإن استشهدتم في الجهاد في سبيل الله، أو جاءكم الموت بأجلكم المحتوم، فذلك خير مما يكتنزون من أموال، لأن ذلك الاستشهاد، أو الموت، إنما هما مغفرة ورحمة من الله، في حين أن ما يجمعون من أموال تكون وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة :﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّـهِ تُحْشَرُونَ﴾١٥٨إن الله هو مرجعكم .

يخاطب الله رسوله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّـهِ لِنتَ لَهُمْ﴾يُحتمل أن يكون المعنى: فبرحمتي يا محمد لنت للذين تركوا المعركة في أحد.

قال الإمام أحمد:حدثنا حَيْوة، حدثنا بَقِيَّة، حدثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الحُبْراني قال:أخذ بيدي أبو أمَامة الباهلي وقال:أخذ بيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " يَا أَبَا أُمامَةَ، إنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُه "[٢٦]

لأن عدم اللين مع المسلمين الذين انهزموا في معركة أحد، قد يسهم في التفرقة، كما سيذكر الله ، وهذا يشق على السول في نشر الرسالة خاصة وهو في انتصار العدو عليه، فالحكمة هنا تقضي العفو والتكاتف واللين من أجل استجماع القوة، فبرحمة الله تعالى لان لهم النبي. فيبيّن له الله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾قاسياً لهم بكلامك:﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾شديداً معهم بأفعالك:﴿ لَانفَضُّوا﴾ لتفرقوا :﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾وتركوك وحيداً. ثم انظر إلى حكمة الله وهو يوجه نبيه بألاّ يكتفي بذلك فقط ، بل يتجاوزه إلى:﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾تجاوز لهم عن خطيئتهم :﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ادع الله كي يغفر لهم:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾لأنهم بعد كل تلك المراحل يتأهلّون كي يصبحوا أهلاً للإستشارة . تكمن عظمة الله هنا بأن النبي الذي يتلقى تعاليمه من الله، وهو في غنى عمّا دونه في مسألة الاستشارة، أن الله يُبقي صلة التواصل الفكري واللغوي والعقلي بينه بين أصحابه، وهذا يجعلهم يشعروا بالمسؤولية، كيف لا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره ربه أن يستشيرهم، وقد كان منهم ما كان، ثم جاء من الله ما جاء.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾بعد مشاورتهم:﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ﴾لاعلى أحدٍ سواه :﴿إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾١٥٩الذين يوكلون أمرهم لله دون غيره، والتوكل على الله لايمنع الاستشارة، بل يستحبها، لأنها تعزز حالة المسؤولية والتعاضد بين الناس.

[٢٦]انفرد به الإمام أحمد

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّـهُ﴾الذي وكلتموه أمركم :﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾لاأحد يغلبكم :﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾لاينصركم الله :﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾وهو سؤال من الله، وتكمن الإجابة في: لاأحد بعدك ينصرنا ربنا، إن لم تنصرنا.

﴿وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾١٦٠عليك توكلنا وأنت خير الناصرين.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ تبرئة للنبي من الغلو الذي يمكن للبعض أن ينسبوه إليه، والغلو بمعنى عدم العدل، أو الكيل بمكيالين بالنسبة لشخصين متساويين في الحقوق، فترجح كفة على كفة ظلماً.

قال الكلبي ومقاتل: نزلت في غنائم أُحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئا فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: " ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركزَ حتى يأتيكم أمري " ؟ قالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفًا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم " فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقيل: إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ فيعطي قومًا ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية .

﴿وَمَن يَغْلُلْ ﴾من الناس بعد أن بيّن الله أن النبي ليس له أن يغل :﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾روى قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال: « لا تصيبن شيئًا بغير إذني فإنه غلول، ومن يغْلُلْ يأت بما غَلَّ يوم القيامة » .

وقال ابن أبي حاتم:حدثنا أبي، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سفيان عن خصيف، عن عكرمة عن ابن عباس قال:فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا:لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها. فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ .

وروى ابن مَرْدُويه من طريق أبي عمرو بن العلاء، عن مجاهد، عن ابن عباس قال:اتهم المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء فُقِد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: " لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علي رقبته بعيرا له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع

تخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ".

﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾١٦١﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّـهِ ﴾عمل بما يرضي الله :﴿كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّـهِ ﴾لأنه لم يعمل بما يرضي الله:﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾١٦٢﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّـهِ وَاللَّـهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾١٦٣

الباب التاســـع عشـــر
منّـــة اللـــه

يبيّن الله هنا فضله على الناس بقوله:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ليس بالضرورة أن يكون القصد العرب، لأن ليس كل عربي مسلم ، وما كل غير عربي غير مسلم، ونسبة المسلمين من غير العرب قد تتجاوز نسبة العرب من المسلمين، ولذلك فإن كل مسلم يشعر بأن النبي منه، وهو من النبي، وأنه ينتمي إلى النبي، وأن النبي ينتمي إليه،

فمنة الله ليست على العرب فقط، بل على كل مؤمن و:﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أي من أنفس المؤمنين، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الله الذي:﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾فإضافة إلى منة الله عليهم ببعث الرسول، وتلاوته آيات الله عليهم، فتستمر المنة لتشمل أيضاً بأنه:﴿ وَيُزَكِّيهِمْ﴾يطهرهم من رجس الكفر:﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾القرآن :﴿وَالْحِكْمَةَ﴾من خلال سنته التي كمنت في تصرفاته الحكيمة، فللمؤمنين في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمة:﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾أن يمنّ الله عليهم بكل ذلك :﴿ لَفِي ضَلَالٍ ﴾ جهل﴿مُّبِينٍ ﴾١٦٤ جلي للعيان، ويجلو ذلك في مقارنة حالهم قبل منّة الله، وبعدها، فقد تنظمت لهم آفاق حياتهم﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ما أصابكم في أحد بقتل سبعين منكم :﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾في بدر بقتلكم سبعين منهم، وأسر سبعين آخرين ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ تعجبتم لانتصارهم عليكم في أحد، و:﴿ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾بمعنى كيف يقع لنا هذا ونحن نقاتل في سبيل الله، والله معنا ؟! يخاطب الله رسوله في إجابة على سؤالهم :﴿قُلْ ﴾لأصحابك يامحمد أن الله يقول لكم :﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ لأن الرماة تركوا مركز المعركة وعصوا أوامر الرسول :﴿إِنَّ اللَّـهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾١٦٥ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾جمع المسلمين مع محمد صلى الله عليه وسلم، وجمع المشركين مع أبي سفيان في أحد:﴿فَبِإِذْنِ اللَّـهِ﴾أذن به الله :﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٦٦حتى تبدو النتيجة أمام المؤمنين ويتعظوا بها.

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾وكذلك لتبدو أمام الذين نافقوا﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ ﴾قاتلوا عن الدين الذي تُظهرون بأنكم منه ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ادفعوا معنا عن أنفسكم وعن أهلكم أذى المشركين:﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾

وهؤلاء هم عبد الله بن أبي ومّن معه من المنافقين وكانوا نحو ثلاثمائة ضمن الألف الذين أتوا مع رسول الله للقتال، فلما انسحب المنافقون من المعركة، لحق بهم عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري، أبو جابر بن عبدالله، وقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوافأجابه ابن أبّي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم. فلما يئس منهم عبدالله قال: اذهبوا أعداء الله فسيغني الله رسوله عنكم. ثم عاد يقاتل مع النبي حتى لقي الشهادة.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾إنهم يرجحون كفة الكفر على كفة الإيمان، ومما يُروى أن النفاق جاء من نافقاء اليربوع، وذلك لأن جحر اليربوع له بابان: القاصعاء والنافقاء، فاذا طلب من أيهما كان خرج من

الآخر فقيل للمنافق أنه منافق، لأنه وضع لنفسه طريقين، إظهار الاسلام وإضمار الكفر، فمن أيهما طلبته خرج من الآخر.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾يُظهرون الإسلام، ويُبطنون نقيضه:﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾١٦٧في قلوبهم ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾لاتذهبوا إلى القتال﴿وَقَعَدُوا﴾ولبثوا قاعدين دون أن يذهبوا إلى المعركة :﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾هؤلاء الذين لم يطيعوننا وذهبوا إلى المعركة وقُتلوا فيها :﴿مَا قُتِلُوا﴾ لكانوا مثلنا أحياء، وقد قُتلوا لأنهم لم يقتدوا بنا .

يقول الله لرسوله كجواب على قولهم :﴿قُلْ﴾ لهم يامحمد، إن كان الأمر على ما تقولون :﴿فَادْرَءُوا﴾فامنعوا﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾١٦٨

ثم يخبر الله عن الذين استشهدوا:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾١٦٩

قال الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه:حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمَشُ، عن عبد الله بن مُرَّةَ، عن مسروق قال:سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فقال:أما إنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: " أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلاعَةً فَقَالَ:هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا:أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا:يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا ".

وقال الإمام أحمد:حدثنا عبد الصمد، حدثنا حَمَّاد، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ " .

ويُروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: " يا جابر ما لي أراك منكسرا " ؟ قلتُ يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالا ودينًا قال: " أفلا أبشرك بما لقي الله به أباكَ " ؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: " ما كلم الله تعالى أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلّمه كفاحًا قال: يا عبدي تمنَّ عليّ أعطِك قال: يا ربِّ أحيني فأقتل فيك الثانية، قال الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق منّي أنهم لا يرجعون فأنزلت فيهم ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾".

ويقول البخاري:قال أبو الوليد، عن شعبة عن ابن المُنْكَدِر قال:سمعت جابرا قال:لما قُتِل أبي جعلتُ أبكي وأكشفُ الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينْهَوني والنبي صلى الله عليه وسلم

لم يَنْه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تَبْكِهِ – أو:مَا تَبْكِيهِ – مـا زَالَـتِ الْملائِكَـةُ تُظِلُّـهُ بِأجْنِحَتِهـا حَتَّـى رُفِعَ"[٢٧]

ويقول الإمام أحمد:حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أمية بن عَمْرو بن سعيد، عن أبي الزبير المكي، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال:قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: " لَمَّـا أُصِـيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيـلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ ، وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مُنْقَلَبِهِم قَالُوا:يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَـا يَعْلَمُـونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلا يَنْكُلُوا عَنْ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَأَنزلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاءِ الآيَاتِ: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ يُرْزَقُـونَ ﴾ ومـا بعدها "[٢٨]

ثم يخبر الله رسوله عن الشهداء بقوله:﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِـم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾١٧٠

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّـهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّـهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾١٧١

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّـهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾١٧٢قال ابن أبي حاتم:حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان بن عيينـة، عـن عمـرو، عـن عكرمـة قال:لمـا رجـع المشركون عن أحد قالوا:لا محمدا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا. فسمع رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حَمْراء الأسد – أو:بئر أبي عيينة – الشك من سـفيان– فقـال المشركون:نرجع من قابل. فرجع رسول الله صلى الله عليه وسـلم، فكانـت تعـد غـزوة، فـأنزل الله عـز وجـل: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.قال أبو بكر الأصم: نزلت هذه الآية في يوم أحد لما رجع الناس اليه صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة فشد بهم على المشـركين حتى كشفهم، وكانوا قد هموا بالمثلة فدفعهم عنها بعد أن مثلوا بحمزة، فقذف الله في قلوبهم الرعـب فـانهزموا، وصلى عليهم، صلى الله عليه وسلم ودفنهم بدمائهم، وذكروا أن صفية جاءت لتنظر الى أخيها حمزة فقـال عليـه الصلاة والسلام للزبير: ردها لئلا تجزع من مثلة أخيها، فقالت: قد بلغني ما فعل به وذلك يسير في جنـب طاعـة

---

[٢٧]وورد سنده كذلك عند مسلم والنسائي من طريق آخر عن شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال:لما قتلَ أبي يوم أحد، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي.

[٢٨]هكذا رواه الإمام أحمد، وكذا رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن إسماعيل بن عَيَّاش عن محمد بن إسحاق به ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن أبي الزبير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فذكره، وهذا أثبت . وكذا رواه سفيان الثوري، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس.

الله تعالى، فقال للزبير: فدعها تنظر اليه، فقالت خيرا واستغفرت له. وجاءت امرأة قد قتل زوجها وأبوها وأخوها وابنها فلما رأت النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي قالت: إن كل مصيبة بعدك هدر.

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾١٧٣ قال ابن إسحاق وجماعة: يريد الناس ركب عبد القيس، مروا بأبي سفيان فدسهم إلى المسلمين ليثبطوهم. وقيل: الناس هنا المنافقون. قال السدي: لما تجهز النبّي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للمسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون وقالوا: نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا" فإن أتيتموهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد. فقالوا: ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾.

وروى البخاري عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ إلى قوله:﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقي في النار. وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾. والله أعلم.

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾١٧٤روى ابن عباس أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: قل بيننا وبينك ذلك إن شاء الله تعالى، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران، وألقى الله تعالى الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم نعيم معتمرا، فقال: يا نعيم إني وعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الابل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقتلوا أكثرهم فان ذهبتم اليهم لم يرجع منكم أحد، فوقع هذا الكلام في قلوب قوم منهم، فلما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك قال: والذي نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه نحو من سبعين رجلا فيهم ابن مسعود، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى، وهي ماء لبني كنانة، وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام، ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين، ووافقوا السوق، وكانت معهم نفقات وتجارات، فباعوا واشتروا أدماً وزبيباً وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمى أهل مكة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾١٧٥

نرى هنا تقسيم الناس إلى فئتين، فئة أولياء الشيطان، وهؤلاء يجنّدهم الشيطان كي يخوّفوا المؤمنين، وفئة أولياء الله الذي يبيّن لهم الله أن الخوف منه عز وجل، هو حصانة لهم من تخويف الشيطان لهم عن طريق أوليائه، والفرق

بين الخوفين هو الخوف من الشيطان يؤدي بصاحبه إلى عدم الخوف من الله، والخوف من الشيطان ينتهي بصاحبه إلى المهالك والإفساد والشر، وبالتالي إلى بؤس المصير في الدنيا والآخرة، في حين أن الخوف من الله، يؤدي بصاحبه إلى عدم الخوف من الشيطان، لأن قوة الله تفوق قوة الشيطان، والشيطان هو مِن خَلق الله، وبالتالي يرضخ لتلقي أمر الله، كما حدث معه عند خلق الإنسان، فالخوف من الله هو قوة ومناعة للإنسان من وساوس الشيطان، لأن المؤمن هنا يكون مُسلّحاً بسلاح الخوف من الله، هذا السلاح الذي يقلب الموازين، فلا يجعل الشيطان يائساً من وسوسته بالتخويف فحسب، بل يجعل الشيطان ذاته يخاف من هذا المؤمن الذي بلغ درجات راسخة في خوفه من الله، ثم أن هذا المؤمن يبات يُشكل تهديداً للشيطان في استدراج أوليائه، والسعي إلى إخراجهم من ظلمات الخوف من الشيطان، إلى أنوار الخوف من الله، فكم من شخص كان ولياً للشيطان، فأهداه الله إلى سبيل الخوف منه على يد مؤمن. ينبّه الله المؤمنين بقوله وأمره معاً :﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ**﴾ فلا تخافوا أولياء الشيطان الذين يسعون إلى تخويفكم بتوجيه من وليهم :﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

ثم يوجه الله كلامه في هذا الحديث إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم:﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ**﴾يا محمد: ﴿ **الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾وهذا بمثابة طمأنينة يبثها الله لرسوله حتى لايحزن على:﴿ **الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾أو يشعر بأنهم قد يشكلون خطراً على الإسلام بأعدادهم، فيردف الله طمأنة رسوله قائلاً له: يا محمد:﴿**إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ثم يبيّن له بأن هؤلاء لايقدمون على ذلك رغماً عن الله، بل:﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾١٧٦

ثم يبيّن له بشيء من الشرح:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ**﴾يا محمد، هؤلاء:﴿ **لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾لأن تجارتهم خاسرة، كونهم اشتروا الخبيث بالطيب، فذلك يضرهم فحسب، كونهم جلبوا الخبيث لأنفسهم بأنفسهم:﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٧ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ** ﴾بمعنى أن الله يفسح للكفار مجالاً كي يزدادوا إثماً، وهذا الإمهال ليس لخيرهم، بل لو عجل الله في موتهم، لكان خيراً لهم لأنهم ما ازدادوا إثماً، فانظر إلى قول الله عز اسمه:﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾الأعراف١٨٢ . ثم انظر إلى قوله:﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾ الأعراف١٨٣ فالنعمة بالنسبة للكافر هي في حقيقتها نقمة عليه، ولذلك فهو غير محسود عليها من قِبل المؤمن، وهو يُحسد عليها مِن قِبل الكافر الذي يكون على شاكلته:﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾١٧٨

مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾١٧٩

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: قالوا إن كان محمد صادقاً فليخبرنا بمن يؤمن به منا ومن يكفر؟ فأنزل الله: ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه**...﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: «يقول للكفار ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه**﴾ من الكفر ﴿**حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.« وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: يقول للكفار لم يكن ليدع المؤمنين على ما أنتم عليه من الضلالة حتى يميز الخبيث من الطيب، فميز بينهم في الجهاد والهجرة.

قال السدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « عُرضتْ علي أمتي في صورها في الطين كما عُرِضتْ على آدم وأُعْلِمْتُ من يؤمن بي ومن يكفر بي » فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء: زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد، ونحن معه وما يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « ما بال أقوام طعنوا في علمي لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبأتكم به » فقام عبد الله بن حذافة السهمي: فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: حذافة فقام عمر فقال: يا رسول الله رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبك نبيًا فاعفُ عنا عفا الله عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « فهل أنتم منتهون » ؟ ثم نزل عن المنبر فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ**﴾الذين يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله، ويغلّون أياديهم كي يُكدّسوا الأموال، وإن نظرنا إلى الأمر، سيجلو لنا بأن هؤلاء يعقدون آمالهم على هذه الأموال، ولذلك ينهى الله الإنسان من تعليق آماله على مال، ثم يُفجع بأن هذا المال يعجز عن تقديم شيء له. فعندما يقوم الإنسان بالإنفاق في سبيل الله، إنما يوثق الصلة بينه وبين ربه من جهة، ثم بينه وبين الناس من جهةأخرى، وهذا يجعله على علاقة تسالم مع نفسه بما يجنّبه كوابيس الأرق، ولذلك تقول العامة بأن صاحب المال تعبان، وهذا يأتي على صاحب المال البخيل، في حين أن صاحب المال السخي، هو في راحة وسكينة، يستلذ بتذوّق عسل الإنفاق، فهو يجد متعة الحياة، في مواقف العطاء أكثر مما يجدها في مواقف الأخذ، ولذلك فهو يلمس جمالية الإنتماء ويعيشها لحظة بلحظة ، نظير البخيل الذي يعيش حالة مفزعة من اللاانتماء:﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّـهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾١٨٠

﴿**لَّقَدْ سَمِعَ اللَّـهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:لما نزل قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة:٢٤٥ . قالت اليهود:يا محمد، افتَقَرَ ربّك. يَسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾ الآية[٢٩]

وقال محمد بن إسحاق:حدثني محمد بن أبي محمد، عن عِكْرمة أنه حدثه عن ابن عباس، رضي الله عنه، قال:دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدراس، فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم

[٢٩] رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

يقال له:فِنْحَاص وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له:أشيع. فقال أبو بكر:ويحك يا فِنْحَـاص اتـق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق مـن عنـده، تجدونـه مكتوبًـا عنـدكم في التـوراة والإنجيل، فقال فنحاص:والله – يا أبا بكر– ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كمـا يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطنـاه ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجه فِنْحَاص ضـربًا شـديدًا، وقال:والـذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فَاكْذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:أبصر ما صنع بي صاحبك. فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم لأبي بكر: « ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ » فقال:يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولا عظيما، زعَـم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مما قال، فضربت وجهه فجَحَد ذلـك فنحـاص وقال:مـا قلتُ ذلك فأنـزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقًا لأبي بكر: ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾[٣٠]

إن الله يبيّن لرسوله بأنه عليم بكل شيء، حتى بكلمة تُقال، وقد أعلمه بما قيل في الأرض قائلاً: ﴿**سَنَكْتُبُ مَـا قَالُوا**﴾ ليكون شاهداً عليهم ، فالكتابة، هي الوثيقة، لأن الإنسـان عنـدما يسـتمع إلى صـوته لـن يعـود بمقـدوره الإنكار، ولَئِن أنكر قائل القول قوله عندما حضر إلى رسول الله، أخبر الله رسوله بأن ذاك القول موثق لديه. ثـم أنزل هذا القول على رسوله كما قالوه:﴿**إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ** ﴾. كذلك :﴿ **وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾قتل اليهود لأنبيائهم زكريا، ويحيى ، وشعيا، وغيرهم عليهم السلام : ﴿**وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾١٨١

﴿ **ذَلِكَ بِمَا**﴾ذلك حصيلة ما:﴿ **قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّـهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾١٨٢

﴿ **الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّـهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾١٨٣

قال الكلبي: نـزلت في كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بـن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد تزعم أن الله تعـالى بعثـك إلينـا رسـولا وأنـزل عليك الكتاب وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة ﴿ **أَلا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ** ﴾ يزعم أنه جـاء مـن عنـد الله، ﴿ **حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُه النَّارُ** ﴾ فإن جئتنا به صدقناك" قال فأنـزل الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا** ...﴾ الآية

﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾١٨٤فهـذا لـيس بـأمر جديد عليهم، وليس بأمر جديد على الأنبياء أيضاً:﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾١٨٥

[٣٠] رواه ابن أبي حاتم

إنما الفوز، هو فوز الآخرة، والمؤمن الفائز، هو ذاك الذي يبذر في الـدنيا ليحصـد بمشـيئة الله في الآخـرة، فـلا تغرّنك أيها الإنسان هذه المتاع، لأنها كالسراب، سريعة الزوال، إنما الحقيقة الباقية التي لاتـزول هـي تلـك الـتي عند الله.

الباب العشرون

عزم الأمـــــور

نأتي هنا إلى أهمية العزيمة، وهي الجدّية، أن تأخذ الأمر ببالغ الجدّية، وتعمل فيه ببالغ الجدّية، فتكون عازماً في أمرك، غير متردد، وأنت تلقى أشكال الأذى التي تحيط بك، فتزداد بذلك عزيمة. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾البلاء للمؤمن دليل محبة الله له، ذلك أن البلاء يجعل المؤمن أكثر عزيمة، وفي الشدائد تظهر المعادن:﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾وما ذلك إلاّ للنيل من إيمانكم ، وزحزحتكم عن الصراط المستقيم:﴿وَإِن تَصْبِرُوا ﴾تتعاملوا مع أذاهم بالحكمة وليس بردود الأفعال المتسرعة:﴿وَتَتَّقُوا ﴾ولعل هذه الكلمة تحمل معنيين معاً، فأن تستندوا في صبركم على تقوى الله، ثم تتقوا شرهم بالصبر وكظم الغيظ:﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾الصبر، والتقوى، والاتقاء:﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾١٨٦بمعنى صحيح الأمور، وحكمتها

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾لتبيّن آيات القرآن للناس﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾فأنكروا ذلك وجعلوه خلف ظهورهم، وفضلوا عليه المال القليل:﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾١٨٧جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من ادَّعَى دَعْوى كاذبة لِيتَكَثَّر بها لم يَزِدْه الله إلا قِلَّة » وفي الصحيح: « المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَي زُور» .

ثم يخبر الله:﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾١٨٨قال الإمام أحمد:حدثنا حَجَّاج، عن ابن جُرَيْج، أخبرني ابن أبي مُلَيكة أن حُمَيد بن عبد الرحمن بن عَوْف أخبره:أن مروان قال:اذهب يا رافع – لبَوَّابه– إلى ابن عباس، رضي الله عنه، فقل لئن كان كل امرئ منَّا فَرِح بما أتَى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معَذَّبًا، لنُعَذبن أجمعون؟ فقال ابن عباس:وما لكم وهذه؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وتلا ابن عباس: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية. وقال ابن عباس:سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه[٣١]

لايظنن أحد بأنه يملك شيئاً بالنسبة لله، لأن الله يملك الإنسان وما يملك هذا الإنسان:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾١٨٩وهو قادر على التصرف بملكه بما يشاء

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾١٩٠الذين ينظرون إلى السماء، ثم ينظرون إلى الأرض، فيستشعرون عظمة الله في الخلق، ثم ينظرون إلى تبدّل الأوقات التي تُبدّل كل شيء معها، فالصبح لايشبه الظهر، والظهر لايشبه العصر، والعصر، لايشبه الغروب، والغروب لايشبه ظلام

[٣١]هكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مَرْدُويه، والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث عبد الملك بن جُرَيج.

الليل الدامس، وظلام الليل الدامس لايشبه لحظات انبلاج الفجر، وهكذا فإن الإنسان ذاته لايبقى ثابتاً وجامداً، لأن ذلك كله يجعله يتجدد ويتعلم ويكتشف، حتى يُدرك كل هذه المزايا ويستشعرها ثم يعمل على تطوير نفسه، وهو يزداد مع كل وقت من الأوقات إيماناً بالله. وهذه دعوة للإنسان كي يصبح من أولي الألباب:﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾واستناداً على قاعدة إيمانهم يقولون:﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾١٩١ثم يقولون:﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾١٩٢ويسألون ربهم:﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** ﴾١٩٣فقد استجبنا للنداء الذي نادانا به النبي وهو يتلو علينا القرآن، فآمنا بأنه رسولك، وأن القرآن كتابك:﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَاتُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾١٩٤

يقول الله:﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ** ﴾وقال لهم:﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾١٩٥

﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ**﴾يا محمد، وقل للمؤمنين: لايغرنكم:﴿**تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ** ﴾١٩٦تقلبهم في الأموال ، والمكاسب، وأشكال الرفاه، فهذا كله:﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** ﴾قصير، يقتصر على حياتهم الدنيا: ﴿**ثُمَّ** ﴾ عندما يخرجون من الدنيا، سيكون:﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾١٩٧

﴿ **لَـكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ**﴾في مقابل أولئك الذين لم يتقوا ربهم:﴿ **لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ** ﴾١٩٨

فأنت إزاء فئتين هنا، فئة لاتتقي الله، وفئة تتقي الله، ثم أن الله يُظهرك على مصير الفئتين سواء في الدنيا، أو في الآخرة، وهذا مرجعه إلى:﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ**﴾.

وحتى لايلتبس عليك الأمر، فتقيّم كل شخص من أهل الكتاب بالكفر، يقول لك الله:﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾١٩٩وقد تعددت الروايات ف أسباب نزول هذه الآية، فقدفقال ابن عباس وجابر وقتادة: نزلت في النجاشي حين مات وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال المنافقون: إنه يصلي على نصراني لم يره قط، وقال ابن جريج وابن زيد: نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه، وقيل: نزلت في أربعين من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فأسلموا،وقال مجاهد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم.

وهي روايات متقاربة مع بعضها من حيث جوهر معنى الآية، التي تعيدنا إلى آيتين سابقتين هما:

﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾١١٤

وقد رأينا من خلال هذه السورة توحد كلمة ﴿ المؤمنين﴾ مع ﴿ المسلمين﴾ فقد تم ذكر المؤمنين ١٢ مرة، دون ذكر المسلمين، وهذا مرجعه إلى ذكر ﴿ الإسلام﴾ مرتين اقترن فيها الاسلام بالدين، فقال في الذكر الأول :﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾١٩وقال في الذكر الثاني:﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾٨٥

تنتهي زهراء القرآن بقول الله للمؤمنين عامة:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾الذين آمنو سواء من أتباع القرآن، أو من أتباع أهل الكتاب في أي زمان ومكان ، وقد جعل الله المؤمنين صفاً واحداً، ووجه إليهم خطاباً واحداً:﴿ اصْبِرُوا﴾على ما يصيبكم من نفع، أو من أذى، وقد وقفت آيات السورة على العديد من أشكال النفع، وأشكال الأذى الذي أصاب المؤمنين السابقين، وسوف يصيب المؤمنين اللاحقين لأن خطاب الله عز وجل غير مقتصر على زمن واحد، أو على بقعة جغرافية بعينها، وهو خطاب موجه إلى إنسان كل زمان ومكان، حمله مَن وصفه الله تعالى بقوله:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾الأنبياء١٠٧

وقوله في وصف القرآن:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ الفرقان١

وقوله جل شأنه:﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾الأنعام٩٠

وقد أرتنا السورة مزايا الصبر، وكيف أن الله يكون مع الصابرين في صبرهم، وكيف أن حكمة الله تتجلى في الصبر، والثمار تغدو يانعة مع الصبر عليها.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

"إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٣٢]

من هنا يمكن اعتبار أن الصبر من النعم الكبرى التي عرفها الإنسان ، لأن الصبر بمقدوره أن يواسيه ، ويجعله في حالة انضباط دون أن يفقد اتزانه .

الصبر رفيق الإنسان القديم ، رفيقه الوفي في مراحل حياته المتقلبة ، ويستعين الإنسان الصبور بصبره على الحياة فهو عندما يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الوعي ، فإنه يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الصبر .

والإنسان يتدرج في معرفة الصبر حتى يبلغ مراحل متقدمة منه ، ويبلغ مرحلة يعقد فيها علاقة وثيقة مع الصبر . الإنسان الصبور هو محاور جيد مع ذاته بالدرجة الأولى ، ويعيش حالة من التصالح والتسالم مع نفسه .

العلاقة المترسخة مع الصبر والتحاور والتصالح مع الذات تؤهل صاحبها كي يقف وسط الأمور ، ويكون مسيطراً على انفعالاته ، وأهوائه ، وردود الأفعال التي يواجهها .

[٣٢]الترمذي عن أنس

إنه يعيش حالة من السكينة والاستقرار والتأمل متعظاً مما يقع معه ، أو حوله ، إنه قارئ ومتأمل جيد لكل ما يرى ويسمع .

يقول صلى الله عليه وسلم : "عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ"[٣٣]

والصبر هنا يدخل باب العبادة، كونه استجابة لأمر الله، فقد ورد الخطاب بصيغة الأمر، ثم:﴿**وَصَابِرُوا** ﴾هذه الكلمة التي أمر بها الله تعالى المؤمنين تتمتع وتغتني بالعديد من المعاني، فعليك هنا أن تصبر صبراً على صبرك كي ترتقي إلى درجة الصابر، وحينها تكون ممن شملهم الله بقوله تعالى في الآية ١٧ من هذه السورة:﴿**الصَّابِرِينَ**﴾فبعد:﴿ **اصْبِرُوا**﴾أتى أمر الله:﴿﴿**وَصَابِرُوا** ﴾أن تصابر، يعني أن تصبر، ثم تصبر بالمصابرة صبراً على صبرك حتى لاينفذ صبرك، فعسى أن تكره أمراً، ولاتصبر عليه:﴿**وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾النساء١٩﴾ :﴿ثم:﴿**وَرَابِطُوا**﴾بالدوام على العبادة، أن تعزم، وتشدّ همتك وأنت تنتظر عبادة تلو أخرى في كل ما يمكن له أن يكون عبادة ، وعلى هذا النحو تبقى مرابطاً بحميمية، ومعنويات مرفوعة ، ونشاط ، وكل يوم عن يوم تزداد ثباتاً في رباطك مستعيناً بالله، ثم:﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾في سائر شؤون حياتكم، عندما تعمل عملاً، عليك أن تتقي الله في عملك، عندما تقول قولاً، عليك أن تتقي الله في قولك، أن تكون دائم الذكر لربك في كل ما تقوم به، وتكون مدركاً بأنه يراك، فتكون متقياً في رؤيته لك:﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾٢٠٠ و:﴿ **لَعَلَّكُمْ**﴾تعني بأنكم لو استجبتم لكل أوامر الله، فلا يعني ذلك أنكم ستفلحون، إلاّ إذا رحمكم الله برحمة الفلاح، لعل الفلاح يصيبكم برحمة من الله، لأنكم قد تهيأتم لفلاح الله، فإن شاء فلحتم، وإن شاء لبثتم دون فلاح. مثل الذي يزرع زرعاً ويستوفي لكل المتطلبات حتى يطلع الزرع، وعند الحصاد، تنشب فيه نار وتحرقه كله وتحيله إلى رماد، وكلمة الفلاّح هي قريبة من الفلاح، لأنه يفلح الأرض حتى يفلح بالحصاد، وعلى قدر ما يبذل قصارى جهده في فلاحته، فإنه سيرى بمشيئة الله نتاج جهده وكده وفلاحته، بيد أن الله تعالى إن لم يشأ له الحصاد، لن يكون بوسعه أن يجني شيئاً مهما بذلك من جهد، كذلك فإن الإيمان يمكن له أن ينتهي بصاحبه إلى الكفر، لولا رحمة الله بحسن الخاتمة، كما أن الكفر يمكن أن ينتهي بصاحبه إلى الإيمان، وحسن الخاتمة برحمة الله جل ثناؤه. ﴿ **لَعَلَّكُمْ**﴾أي أن تعقد الأمل على الله، وأنت تقول: لعلي أفلح برحمة ربي، ولكن لماذا: ﴿ **لَعَلَّكُمْ**﴾هذه ؟ فإن نظرتَ فيها بشيء من إمعان، وتفكر، سيجلو لك بأنها لمصلحتك، وهي تجنّبك متاهات الاستكبار، ولعل يبث إليك شعوراً ووساوس من الشيطان بأنك إنما ظفرت بالفلاح نظير ما قمت به من جهد، وبالتالي فإنك أوفيت الله حقه وعليك، فكان لزاماً عليه أن يعطيك حقك، وهذا من شأنه أن يُحدث شرخاً في بنية الإيمان لديك مع الأيام، ولذلك، فقد سدّ الله منفذ الشيطان هذا إليك بـ:﴿ **لَعَلَّكُمْ**﴾، فتبقى دوماً بحاجة إلى رحمة الله كي تبارك لك

[٣٣] الترمذي عن أنس

عبادتك، لأن العبادة مهما اكتملت، دون رحمة الله لاتكون عبادة مباركة ببركـة الله، هـذه المباركـة الإلهيـة الـتي تجعلك تفلح في عبادتك.

الفهرس

مقدمـــة		
الباب الأول	معرفـــة الله	
الباب الثاني	رسالة القرآن	
الباب الثالث	فِصال الإنسان	
الباب الرابع	محكم القرآن ومتشابهه	
الباب الخامس	الراسخون في العلم	
الباب السادس	المُزَيِّن والمُزيَّن في زُيِّنَ	
الباب السابع	المستغفرون بالأسحار	
الباب الثامن	شهادة اللـــه	
الباب التاســع	عالم آل عمران	
الباب العاشـــر	ولادة المســيح	
الباب الحادي عشر	ما بعد المسيح	
الباب الثانـــي عشـــر	ميثاق النبيين	
الباب الثالث عشـــر	مرجعية البيت الأول	
الباب الرابـع عشـر	حبل اللـــه	
الباب الخامس عشر	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	
الباب السادس عشـــر	بطانـــة الســـوء	
الباب السابـــع عشـــر	مغفرة اللـــه	
الباب الثامـــن عشـــر	التوكـــل علـــى اللـــه	
الباب التاســـع عشـــر	منّـة اللـــه	
الباب العشرون	عزم الأمـــور	

عبد الباقي يوسف
مواليد مدينة الحسكة - سورية ١٩٦٤

مؤلفاتــه

في الروايــة:

١- برويــن - مركز رام - دمشق - ١٩٩٧
٢ - ديـــن - دار الينابيع - دمشق ٢٠٠٤
٣ - جسد وجسـد - دار الينابيع - دمشق ٢٠٠٤
٤ - روها ت - دار المنارة - بيروت ٢٠٠٦
٥ - خلف الجدار - دار كنعان - دمشق ٢٠٠٧
٦ - إمام الحكمة - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت ٢٠١٠
٧ - الآخرون أيضاً - منظمة كتاب بلا حدود - كركوك ٢٠١٢
٨ - هولير حبيبتي - مكتبة التفسير للنشر والإعلان - أربيل ٢٠١٤
٩ - هولير سدرة العشق - مكتبة التفسير للنشر والاعلان - أربيل ٢٠١٥

في القصـــة:

١٠ - سيمفونية الصمت - دار المجد - دمشق ١٩٨٩
١١ - الحب في دائرة العبث - دار المجد - دمشق ١٩٩٠
١٢- طقوس الذكرى - دار الثقافة - دمشق ١٩٩٢
١٣ - كتاب الحب والخطيئة - مركز الإنماء الحضاري - حلب ٢٠٠٤
١٤ - غيوم من الشرق - منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق ٢٠٠٦
١٥ - طريقة للحياة - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ٢٠٠٧

في الدراسات:

١٦ - فقـــه المعرفـــة - دار المنارة - بيروت ٢٠٠٤
١٧ - إسلام ومسلمون وفقهاء - دارالرضوان - حلب ٢٠٠٤
١٨ - عالم الكتابة القصصية للطفل - وزارة الثقافة والإعلام - سلسلة كتاب المجلة العربية- الرياض ٢٠١٠
١٩ - حساسية الروائي وذائقة المتلقي - وزارة الثقافة والإعلام - سلسلة كتاب المجلة العربية- الرياض ٢٠١٢
٢٠ - الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن - الاتحاد الاسلامي الكردستاني - أربيل ٢٠١٤
٢١ - فضيلة العفو في السيرة النبوية - مطوية - منشورات جامعة الملك سعود – الرياض ٢٠١٥